لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

د. إبراهيم عوض

عصمة القرآن الكريم وجَهالات المبشّرين



مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد ـ القاهرة

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

عصمة القرآن الكريم
وجهالات المبشّرين

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد ـ القاهرة
هاتف ٣٩٢٩١٩٢

٢٠٠٥م

عصمة القرآن الكريم
وجهالات المبشّرين

فى البدء كانت هذه الكلمة !

منذ أن جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة الإسلام ، وهو وقرآنه يتعرضان لهجومٍ شرسٍ لا يرعى فى منطقه ولا بواعثه إلاًّ ولا ذمة ، هجومٍ كله باطل : هجومٍ ينطلق تارة من الوثنية والقبلية ، وهو هجوم القرشيين . وتارة يقوم على العصبية القومية الغبية والأنانية الحاقدة الفتاكة ، وهو هجوم اليهود ، الذين لم يطيقوا أن يروا نبيا من خارج بنى إسرائيل ، إذ كانوا يتوهمون أنهم أبناء الله ، وأن الله هو إلههم وحدهم مهما كفروا ومهما اجترحوا من جرائم ، وأنه لن يعذبهم إلا لأيام معدودة ، فهم شعب الله المختار ، وبقية الخلق «أغيار» منحطّون لا قيمة لهم . وتارة يقوم على رفض التوحيد النقى الذى لا يقر بوراثة البشرية لخطإ أبيهم آدم وأمهم حواء حين نسيا فأكلا من الشجرة المحرّمة فأهبطهما الله من الجنة ، ولا بما يترتب على ذلك المبدإ الظالم الغريب من أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل ابنه الوحيد بعد خطإ آدم وحواء بأزمنة متطاولة كى يفتدى البشر من هذا الخطإ (أو فلنقل كما يقولون : من هذه الخطيئة) ، وذلك بتألمه وموته على الصليب مما يُعَدّ صورة من صور الوثنيات القديمة ، مع أن من المستحيل أن يكون لله سبحانه ولد ، فالألوهية والتعدّد نقيضان لا يجتمعان فى العقل أساسا .

وإنى كلما تأملت هذا الهجوم الحاقد على الرسول الأعظم لم أجد له سببا مقنعا : لا إنسانيا ولا أخلاقيا ولا عقيديا ولا ... ولا ... لقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى أنقى صور التوحيد ، وأكّد أن رب الإسلام إلهٌ عادل رحيم تسبق رحمتُه غضبَه ، ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، على حين لا يجزى السيئة إلا بمثلها ، وكثيرا ما يغفرها ، إلهٌ لا يكلّف نفسا إلا وسعها ، إلهٌ لا يحاسب الأبناء بذنوب الآباء ، إلهٌ يأخذ الناس بنياتهم لا بمظاهر أعمالهم ، إلهٌ أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، إلهٌ يريد لهؤلاء العباد أن يسعَوْا وراء العلم وأن يستزيدوا منه وأن يفتحوا عيونهم وقلوبهم لتأمل الكون وما فيه من جمال ، إلهٌ يحب العمل والإنتاج ويكره الثرثرة والكسل ، إله لا يفرق بين البشر على أساس عرقى أو قومى أو قَبَلى بل على أساس من إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، فالبشر عنده سواسية ، إلهٌ مفتّحة أبوابه ليل نهار للتوبة والحصول على الغفران دون وساطة من أحد أيا كان ودون أية تعقيدات أو إراقة دماء بشرية ، إلهٌ يحضّ على العفو والتسامح ما أمكن ، وإلا فليأخذ المظلوم حقه ممن ظلمه دون أى تثريب ، إلهٌ يُحِلّ الطيبات ويحرّم الخبائث ... إلخ مما لو ذهبتُ أستقصيه ما انتهيت .

كذلك كان رسولنا الكريم هو الصورة المثلى للإنسانية صبرا

وتسامحًا ، وحنوًّا على الضعف البشرى ، ورغبةً فى تحويل هذا الضعف إلى قوة ، وحضًا على تحصيل أسباب الحضارة من علم وعمل ونظام وخلُقٍ طاهر وذوق راقٍ ، وعدلا فى تطبيق القانون ، وتوازنا فى النظر إلى الدنيا والآخرة ، والجسد والروح ، فالدنيا طيبة ما دامت من حلال ، والطعام والشراب والعطر والنساء مِنَنٌ من الله على عباده ليستمتعوا بها ، ولكن بحقها وفى اعتدال ... وهلم جرا . ترى ما الذى فى هذا أو فى ذاك مما يمكن أن يكرهه عاقل سليم القلب مستقيم الضمير ؟ وهل بعد رفض الدين الذين جاء به محمد يستطيع أى إنسان عاقل سليم القلب مستقيم الضمير أن يجد دينا يصلح لاعتناقه والعمل به ؟

وفى الفترة الأخيرة ازداد الهجوم على الإسلام ورسوله شراسةً ظنًا من المهاجمين الحاقدين أن الفرصة سانحة لتوجيه ضربة قاضية إلى ذلك الدين فى ظل ضعف المسلمين وهوانهم وتخلفهم . والواقع أن هؤلاء الحاقدين واهمون ، فالإسلام ، وإن كان المنتسبون إليه الآن ضعافا أذلاء ، هو دين قوى عزيز كريم يستحيل القضاء عليه ، والأيام بيننا ! ولقد مرت على المسلمين أزمان كانوا أشد ضعفا وهوانا مما هم الآن ، ولم يستطع أعداء الإسلام أن ينالوا من دين الله منالا ، بل إن جوهرته لتزداد على الأيام ومعاودة الهجوم عليه تألقا وجمالا !

ومما ظهر فى الفترة الأخيرة من كتب تهاجم الإسلام كتاب تافه صدر فى النمسا سنة ١٩٩٤م بعنوان « هل القرآن معصوم ؟ » لشخص يتسمى باسم « عبد الله عبد الفادى » (أو بالأحرى : العبد الفاضى)[١] راح يهاجم القرآن فى رعونة وجهل، ويتهم لغته بالضعف والخطإ ، ويحاول أن ينال من الرسول الكريم ، الذى حتى لو صدقت كل افتراءات هذا الكاذب الأفاك هو وجميع المبشرين والمستشرقين عليه صلى الله عليه وسلم لكان مع ذلك أفضل من أنبيائهم جميعًا حسبما يصور كتابهم المقدس هؤلاء الأنبياء : فنوح يشرب الخمر حتى يسكر وينطرح على الأرض عريان السوأة ثم يلعن حفيده كنعان لعنًا شنيعًا لا لشىء إلا لأن حامًا أبا كنعان هذا قد تصادف أن رآه على هذه الحال . وإبراهيم يتنازل عن زوجته لأبيمالك خوفا منه قائلا إنها أخته ، ولولا أن أبيمالك قد عرف حقيقة الأمر فى المنام لوقعت الواقعة . ولوط تسقيه ابنتاه خمرا حتى يفقد وعيه ثم تنامان معه الواحدة بعد الأخرى لتحبلا منه . وموسى يقتل المصرى عن عمد وسبق إصرار وقسوة إجرامية أصيلة ، وحين يختاره الله

---

(١) أو « عَبْد الفاضى » بإضافة الموصوف إلى صفته ، فهو عبد يتصرف تصرف العبيد الأذلاء لا السادة الكرام النبلاء ، وفاضٍ ليست له شغلة ولا مشغلة ، ومن ثم يتطاول على سيد الخلق وسيده هو ومن يموّلونه ويحرّضونه على هذه السفاهة !

رسولاً إلى فرعون يردّ عليه سبحانه فى جلافةٍ غريبة أغضبته سبحانه عليه . وهارون يصنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل ويبنى له مذبحًا ويبارك عبادتهم له وطوافهم ورقصهم حوله عراةً صاخبين. وداود يرى امرأة قائده الحربى من فوق سطح قصره وهى تستحم عارية فى فناء بيتها المجاور فيُحْضِرها إليه ويزنى بها ثم يتخلص من زوجها بمؤامرة خسيسة لا يقدم عليها إلا القتلة المتوحشون كى يخلو له وجهها ، ثم يتزوجها وينجب منها سليمان . وسليمان ينظم نشيدا غزليا شهوانيا يتفوق فيه على كل شعراء المجون يصف فيه سُرّة الحبيبة وأثداءها وأفخاذها ، كما يغض الطرف عن عبادة زوجاته للأوثان فى بيته . وعيسى تُكِبّ امرأة على رجليه تبللهما بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها وتقبّل قدميه بفمها وتدهنهما بالطيب فيقول لها : « مغفورةٌ لك خطاياك » ، وتأتيه أمه وإخوته يريدون أن يقابلوه فيرفض قائلا إن أمه وإخوته هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها ، مما لا يمكن أن يكون معناه إلا أنهم لم يكونوا من الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها . وفى مناسبة أخرى يأمر اثنين من تلاميذه أن يدخلا إحدى القرى القريبة ويأتياه بجحش مربوط هناك دون استئذان من أصحابه ليركبه . وفى العشاء الأخير يمسك بكأس خمر ويقدمها لتلاميذه ليشربوا منها ، بل إنه فى أحد الأعراس التى دُعِىَ إليها قد حوّل نحو خمسة عشر مترا مكعبا من الماء إلى خمر ليشرب المدعوّون

ويسكروا ، وكان ذلك استجابةً لطلب أمه . وقد عدّ كاتبُ إنجيل يوحنا هذا العملَ أولى معجزاته عليه السلام ... وهكذا ، وهكذا مما هو مذكور فى كتب القوم ، وإن كنا نحن المسلمين لا نصدّق بشىء منه . ترى ما دام الأمر كذلك فلم يكرهون محمدا صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يفعل ذلك ولا عُشْره بل ولا واحداً على مائة أو على ألف أو حتّى على مليون منه ؟ الواقع أن القوم ، بسبب حقدهم ، قد سُلِبَتْ منهم عقولهم فهم لا يفقهون !

والآن مع الكتاب السخيف الذى يظن صاحبه ومن يقفون وراءه أن بإمكانهم تشويه صورة الرسول والإجلاب على القرآن وعظمته وإعجازه . والواقع أنى لم أردّ على كل الشبهات بل اقتصرت على الشبهات اللغوية وعدد كبير من الشبهات الأخرى التى تتناول مضمون القرآن ، وفيها غُنْيَةٌ عما لم أردّ عليه من اعتراضات . وقد كتبتُ هذه الصفحات وأنا بعيد عن المراجع الكتابية ، اللهم إلا الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس ، ثم إنى سطّرتُها فى وقت انشغال ببعض الأعباء والأبحاث الأخرى .

إبراهيم عوض

٢٠٠٣م

الفصل الأول

(الشبهات اللغوية)

الشبـــهات اللغــوية

فى هذا الفصل نتناول ما سمّاه الجاهل بـ « الأسئلة اللغوية » ، وهى الأسئلة الخمسة والعشرون التى عقد لها فصلا مستقلا غطّى الصفحات ١٠٧ ـ ١١٢ . والهدف الذى يتغيّاه من وراء هذه الشبهات هو أن يلقى فى رُوع القراء أن بالقرآن الكريم أخطاء لغوية ، وهذا دليل على أنه لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يخطئ ، وهو إذن من تأليف محمد . ولسوف أفاجئه وأسلك فى الرد على هذا القىء سبيلا لا يتوقعها هذا الجاهل ولا خطرت له ببال ، إذ سأفترض أن محمدا هو فعلا صاحب القرآن ، ثم أعاجله بمفاجأة أخرى لا تقلّ عن الأولى إذهالا إن لم تزد . هذه هى المسألة كما يقول شكسبير !

فالمعروف أن أية لغة هى من صنع أهلها الأوائل الذين تكون ممارستهم لها حينئذ بالسليقة ، أى بدون أن يكونوا واعين تماما بالقواعد التى تحكمها ، بل يتشرّبها كل جيل من الجيل السابق عليه تشرُّبا ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة أخرى تُجْمَع فيها اللغة وتُسْتَخْلَص قواعدها من كلام أهلها ، فما قالوه يكون هو الصواب ، وما لم يقولوه لا يكون مقبولا .

ولْنطبّق الآن هذا الكلام على اللغة العربية : لقد كان الجاهليون يمارسون العربية بالسليقة ، وكان كلامهم هو مقياس الخطإ والصواب. وبطبيعة الحال فإن شعراءهم وخطباءهم كانوا يمثّلون أرقى المستويات اللغوية لكونهم أفضل قومهم ثقافة وذوقا أدبيا ورهافة حسّ، وكان محمد واحدا من هؤلاء المثقفين ، مَثَلُه مَثَلُ امرئ القيس وطرفة وزهير والأعشى وقُسّ بن ساعدة وحسّان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أُخِذَتْ عنهم اللغة ، ومن كلامهم قُعِّدَتْ قواعدها ، فهل سمع أحد أن شخصا قد خطّأ أيًا من هؤلاء الشعراء أو الخطباء ؟ إن هذا لم يحدث ، ولن يحدث . فقرآن محمد إذن هو ، على أسوإ الفروض ، مثل شعر امرئ القيس مثلا أو خُطَب قس بن ساعدة ، أى أنه هو المعيار الذى يُحْتَكَمُ إليه ويؤخذ منه ويُهْتَدَى به[1] ،

---

(١) انظر ، فى المصادر التى جُمِعَتْ منها اللغة العربية ، د. أحمد محمد قدور / مدخل إلى فقه اللغة العربية / دار الفكر المعاصر / بيروت / ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م/ ٦٣ وما بعدها حيث يذكر الشعر الجاهلى والقرآن الكريم وكلام العرب ، ويجعل القرآن هو النص الأساسى لأنه ، على عكس الشعر الجاهلى ، لم يصبه تحريف لاعتماد حفظه على كلٍّ من الذاكرة والكتابة منذ اللحظة الأولى . ومع ذلك يرانى القارئ قد ذهبت إل أقصى مدى فى التساهل مع المهووسين بتخطئة القرآن حيث سوّيته بالشعر الجاهلى وجعلت الرسول فى ذلك مثل امرئ القيس وعنترة وقُسّ بن ساعدة .

أما إن تطاول أحد وتطلع إلى تخطئته فتلك هى الطامة الكبرى . وهذا ما فعله هذا الأحمق الموسوم بـ « العبد الفاضى » !

وفضلا عن ذلك فينبغى ألا يفوتنا أنه لو كان فى القرآن الكريم أى خطإ لغوى مهما تَفِهَ لملأ مشركو العرب الدنيا صياحا واستهزاء بمحمد . لقد افترَوْا عليه الأكاذيب ولم يألوا جهدا فى اتهامه زورا وبهتانا بأنه مجنون وأنه ساحر وأنه كذاب وأنه إنما يعلمه بشر ، ولكنْ رغم كل هذا لم يجرؤ أحد منهم قط أن يهمس مجرد همس بأن فى القرآن أخطاء لغوية ، مع كثرة ما تحداهم أن يأتوا بقرآن مثله أو بعشر سُوَرٍ منه أو حتى بسورة واحدة تشبه سُوَره ، وكثرة ما نشب بينهم وبينه من حروب كلامية ومعارك بالسيف والرمح والحصان . فما معنى هذا ؟ إن أعداء محمد من المبشرين لا يخجلون ! ذلك أنهم إنما يحركهم الحقد والدناءة ، وناسٌ هذه دوافعهم كيف ننتظر منهم أن يُعْمِلوا عقولهم أو يتقوا ربهم ؟

وطريقتنا مع الشُّبَه اللغوية التى لَقَّنها العبد الفاضى كما يُلَقَّن الأطفال هى أن نذكر كل شبهة منها ونبيّن ما فيها من رقاعة وجهل ثم ننفخ فيها نفخة خفيفة فتطير فى الهواء هباءً منثورا . ولكن قبل أن نبدأ نحب أن نوجه نظر القراء إلى أن معرفة هذا الجاهل بقواعد

اللغة العربية ، حسبما يبدو من أسلوبه نفسه أو من الاعتراضات التى يثيرها ضد أسلوب القرآن ، هى معرفة تافهة فِجّة . وهذه جملة من أخطائه في الكتاب الذى بين أيدينا :

قال مثلا : «فجملة السماوات والأراضى أربعة عشر» (ص ٢٢)، وصوابها لكل من له أدنى إلمام بقواعد اللغة هو : « أربع عشرة » ، وقوله عن مريم أم المسيح عليه السلام : « ... مع أن بينها وبين عمران وهارون وموسى ألف وستمائة سنة » (ص ٣٠) ، والصواب هو: « ألفًا وستمائة سنة »، وقوله : « ... مع أن بين الحادثتين زمن مديد » (ص ٥٨) ، وصحته : « زمنا مديدا »، وقوله : « كيف يكون حال بيت يكذب فيه الزوجان على بعضهما ؟ » (ص ٦٨)، والصحيح : « يكذب فيه الزوجان أحدهما على الآخر ، أو يكذب فيه أحد الزوجين على الآخر »، أما ما قاله فهو كلام العوامّ من أشباهه . ومن أخطائه أيضًا قوله : « نتساءل إن كان ما رواه الأولون حقّ أم شبيه الحق » (ص ٩٩) ، وصحته : « حقًا » ، وقوله: « وتكون رسالة الأنبياء وتكليفهم بالكرازة والدعوة عبث لا ضرورة له ولا فائدة منه » (ص ١٠٣) ، وتصويبه : « عبثا »، وقوله : « ... بشرط أن تجامع رجلا غيره يسمّى محلّل » (ص ١٣٩) ، وصوابه : « يسمّى محلّلا »، وقوله : « يعتقدون أن أحكامها ملغيّة » (ص١٩٨)،

وتصحيحه : « مُلغاة »، وقوله : « خانواْ نظام المجتمع بإتيانهم نسائهم بعد صلاة العشاء » (ص ٢٠١)، وصحته « بإتيانهم نساءهم » ، وقوله : « معروف.. أن لكل لغة أدباؤها » (ص٢٠٣) ، وتصويبه : « أدباءها »، وقوله عن الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه : «كانت له عند وفاته تسع نسوة أحياء وسُرِّيَّتين » (ص٢٠٧)، والصحيح: «وسُرِّيَّتان»، وقوله عن الرَّبَاعِيَة إنها « الأسنان الأربعة الأمامية » (ص٢٤)، والصواب أنها الواحدة من هذه الأسنان الأربع لا كلها ، وقوله : « كانوا اثنى عشر ألفا : العَشْر الذين حضروا فتح مكة ، وألفان انضموا إليه من الطلقاء : هوازن وثقيفا »، وفيه غلطتان قبيحتان : « العَشْر » وصوابها : « العشرة » (أى عشرة الآلاف الذين حضروا فتح مكة)، ثم « وثقيفا »، وصوابها : « وثقيف » (فهى معطوفة على « هوازن »، التى هى بدل من « الطُّلَقاء » المجرورة)، وقوله : «فإذا أراد أن يزوج زينبًا لابنه زيد ... ، وإذا أراد محمد زينبًا ...» (ص٢٤٧)، وصحته «زينبَ» بفتحة واحدة لأنه ممنوع من الصرف ... وهكذا .

ويبلغ خِزْىُ هذا الجاهل أقصاه حين يخطِّئ القرآنَ الكريم فى قوله تعالى : « من بعد ضرّاءَ مَسَّتْه »، إذ يتحذلق فى تعالم سفيه مؤكدا أن وضع فتحة على همزة « ضرّاء » خطأٌ لأنها مجرورة ، ومن

ثم يجب وضع كسرة[1] تحتها (ص١٠٨). وفات هذا الأرعن أن «ضراء» ممنوعة من الصرف فتُجرّ بفتحة واحدة كما هى فى الآية ، أما الجرّ بالكسر فلا تعرفه العربية إلا بكسرتين اثنتين لا بكسرة واحدة. بل إنه ، لفرّط جهله ، يخطئ فى نقل آية قرآنية دون أن يحسّ بأنه قد أتى شيئا ، ومرجع ذلك إلى بلادة إحساسه . جاء فى كلامه عن نوح عليه السلام أن القرآن يقول : « وجعلنا ذريته هم الباقون » (الصافات/ ٧٧) ، وهى بنصب « الباقين » لا برفعها كما كتبها الأحمق .

وإن الإنسان ليذهل من إقدام مثل هذا الجاهل الغشوم الذى يخطئ تلك الأخطاء الأولية على تخطئة القرآن الكريم . بَيدَ أننا ، عند مراجعة الأمر جيداً فى ضوء منطق الأشياء وطبيعتها ، نرى ألا موضع للذهول ولا حتى للاستغراب ، إذ ما أسهل أن يخبط الجاهلُ الذى لا يبصر ولا يقدر على التمييز بين الصواب والخطإ خبط عشواءَ ، وفى حسبانه أنه يُحْسِن صنعا ! ولولا أن هناك جهلة مثله يمكن أن ينخدعوا بمثل هذه التشويشات ما بالَيْنا بها ولا بتوجيه النظر إلى ما فيها من سخف وضلال . وعلى هذا فبيركة الله نبدأ فنتناول تخطئاته الغشوم مبينين ما فيها من تفاهة وجهل :

---

(١) كسرة واحدة . لاحِظْ !

١ ـ يقول (ص١٠٧) إن « الصابئون » فى قوله تعالى فى الآية ٦٩ من سورة « المائدة » : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » كان يجب أن تُنْصَب لأنها معطوفة على «الذين آمنوا» الواقعة اسماً لـ « إنّ » . وقد كان كلامه يكون صحيحا لو أنها معطوفة فعلا على « الذين آمنوا » ولم يكن لها إعراب آخر يهدف إلى نكتة بلاغية لا تتوفر فى الإعراب الذى وَهِمَه . وهذا الإعراب الآخر قد أومأتُ إليه إيماءً بالطريقة التى استعملتُ بها علامات الترقيم فى الآية ، حيث وضعتُ عبارة « والذين هادوا ... وعمل صالحا » بين فاصلتين بما يدل على أنها عبارة اعتراضية ، ويكون تقدير الكلام هكذا : « إن الذين آمنوا لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وكذلك الذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا » . أى أن «الذين هادوا» مبتدأ خبره كلمة «كذلك» ، فهو إذن مرفوع ، وكذلك المعطوفان عليه : «الصابئون والنصارى» . وقد حُذِفت كلمة «كذلك» ، وانتقلت جملة المبتدإ والخبر لتحتل المكان الذى يفصل بين اسم «إنّ» وخبرها . أما النكتة البلاغية فى الآية فهى الإشارة إلى

أن اليهود والصابئين والنصارى هم أيضًا ممن يستطيعون النجاة يوم القيامة إذا دخلوا فيما دخل فيه المسلمون من الإيمان بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات ، بمعنى أن الجنة فى الإسلام ليست مقصورة على العرب وحدهم بل هى مفتحة الأبواب حتى لليهود والصابئين والنصارى وأمثالهم (١). أى أن الإسلام ليس كاليهودية مثلا المقصورة على بنى إسرائيل فلا يمكن أن يشاركهم غيرهم فى الهداية والنجاة لأن ربّ الكون إلهٌ خاصّ بهم ، والنجاة نجاتهم وحدهم ... وهكذا . فهذا ما أراده القرآن بصياغة الآية على ذلك النحو الموجز البليغ الذى لا يستطيع الجهلاء أن يدركوا مراميه لأن القرآن لم ينزل على أمة من الجهلاء المتحذلقين من أمثال هذا الأحمق بل نزل بالأسلوب الذى يفهمه العرب ، ومن ثم لم يجدوا فى هذا الإعراب ما يمكن أن يؤخذ عليه ، وإلا لملأوا الدنيا صراخا واعتراضا ، وهم الذين اتهموا الرسول ، كما ذكرنا ، بكل نقيصة مما هو بعيد عنه بعد السماء عن الأرض ، إلا أنهم لم يحوّموا حول اتهام لغته بالخطإ . وهناك من يوجّهون «الصابئون» على أنها منصوبة رغم ذلك ، ولكن على لغة قبيلة بلحارث بن كعب ، الذين يعربون جمع

(١) الملاحظ أن علماءنا القدامى قد انشغلوا بتوجيه إعراب « الصابئون » فقط كأنها هى وحدها المرفوعة . وأوْجَهُ من ذلك عندى هو ما قلتُه ههنا ، والله أعلم .

المذكر السالم بالواو فى كل الأحوال رفعا ونصبا وجرا مثلما يعربون المثنى بالألف دائمًا فى هذه الحالات الثلاث جميعا، كما أن هناك توجيهات أخرى لا نقف عندها .

ومن الشواهد على الإعراب الذى اخترناه بيت ضابئ البُرْجُمى المشهور الذى يتحدث فيه عن غربته بالمدينة هو وقيّارٍ فرَسِه :

فمن يَكُ أمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ ... فإنى ، وقيارٌ ، بها لَغَرِيبُ

وكذلك بيت بشر بن أبى حازم :

وإلا فاعلموا أنّا ، وأنتم ، ... بُغَاةٌ ما بقِينا فى شِقَاق

حيث أتى بضمير الرفع « أنتم » بعد الواو ، التى لو كانت واو عطف كما وهم الأحمق الجهول لقال : « فاعلموا أنّا وإياكم ...» ، بل «أنتم» مبتدأ ، وخبره محذوف ، وجملة المبتدإ والخبر جملة اعتراضية. ومما يجرى من الشعر أيضًا على هذه الصورة البيت التالى ، وهو من إنشاد ثعلب :

خليلىّ، هل طِبٌ؟ فإنى، وأنتما، ... وإن لم تبوحا بالهوى، دَنِفان

وقول رؤبة :

يا ليتنى ، وأنت ، يا لميسُ ... فى بلدة ليس بها أنيسُ

وكذلك هذا البيت :

فمن يَكُ لم يُنْجِب أبوه وأمه   فإن لنا الأمَّ النجيبةَ والأبُ

وهذا البيت أيضاً :

وما قصّرتْ بى فى التسامى خؤولةٌ   ولكنّ عمىّ الطيبُ الأصل والخالُ

* * *

٢ ـ ويقول الكاتب النزق (ص١٠٧) إن فى نصب « الظالمين » فى قوله تعالى فى الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة « البقرة» : «قال (أى الله لإبراهيم) : لا ينال عهدى الظالمين» خطأ لأنها فاعل ، فكان يجب أن يقال : « لا ينال عهدى الظالمون » . وقد قال علماؤنا القدامى فى تفسيرهم لهذه الآية إن هناك قراءتين : إحداهما هى هذه التى بين أيدينا، والأخرى بالرفع، ووجّهوا ذلك قائلين إن المعنيين متقاربان لأن كل ما نِلْتَه فقد نالك . وقد لاحظتُ أن بعض الآيات التى وَرَد فيها هذا الفعل قد وردت على نحو آيتنا هذه، وبعضها الآخر بالعكس . ومن الأخيرة قوله تعالى: «لَيَبْلُوَنَّكم اللهُ بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم»[1]، وقوله : « لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما

---

(١) المائدة / ٩٤ .

تحبون »[1]، ومن الأولى قوله : « لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكنْ يناله التقوى منكم »[2]. وقد يصح أن نذكر هنا أيضًا قوله تعالى على لسان زكريا فى حديثه عن تقدمه فى السن فى الآية ٤٠ من « آل عمران » والآية ٨ من « مريم » على الترتيب : « وقد بلَغَنِىَ الكِبَرُ ، وامرأتى عاقر »، « وقد بلغتُ من الكبر عِتِيًّا » حيث أتى الضمير العائد على زكريا عليه السلام فى الأولى مفعولا به و «الكبر» فاعلا، وفى الثانية فاعلا ، و «الكِبَر» متعلقا بالمفعول به . وفى كل من التركيبين نكتة خاصة ، إذ توحى الأولى بأنه قد قطع الشوط الأكبر من مسيرة الحياة ، على حين تومئ الثانية بأن الكبر يطارده ويسعى إلى اللحاق به ، بينما يحاول هو فَوْتَه ، لكن الكبر يدركه فى نهاية المطاف .

وعودةً إلى آيتنا نقول إن « العهد » المذكور فى الآية قد تمّ بين الله سبحانه وإبراهيم عليه السلام وانتهى الأمر ، فلم يعد ثمة مجال للقول بأن ذرية إبراهيم يمكن أن تدركه أو لا تدركه ، لكن من الممكن القول مع ذلك بأنه يصدق على بعضهم ولا يصدق على بعضهم الآخر حسب استحقاقهم ذلك أو عدمه . أى أن معنى الآية :

---

(١) آل عمران / ٩٢ .

(٢) الحج / ٣٧ .

« لا يَصْدُق عهدى على الظالمين من ذريتك » . وهذا هو الوجه الذى أختاره ، وإن كنت لا أقلل من شأن ما قاله علماؤنا رحمهم الله . وبهذا التركيب وردت الآيات التالية : « لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » ، « أولئك ينالهم نصيبُهم من الكتاب »[1] ، « إن الذين اتخذوا العِجْل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا »[2] . وبه أيضًا وردت الجملتان التاليتان فى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى : «لذلك نالتنا هذه الشدةُ»[3] ، « لم ينَلْكم من قِبَلنا خسرانٌ فى شىء »[4] .

وقد رجعتُ ، رغم ذلك كله ، إلى عدد من المعاجم التى ألّفها نصارىَ لأرى ماذا تقول عن هذا الفعل ، فوجدتُ « البستان » و«الوافى» لعبد الله البستانى ، و « المنجد » المشهور ، و « الرائد » لجبران مسعود تقول جميعا فى مادة « ن ى ل » : « نالنى من فلان معروف » ، أى وصل إلىّ منه معروف . وفى « مَدّ القاموس » لإدوارد وليم لين (Edward William Lane) فى المادة ذاتها أن من معانى

(١) الأعراف / ٣٧ .

(٢) الأعراف / ١٥٢ .

(٣) تكوين / ٤٢ / ٢١ .

(٤) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثس / ٧ / ٩ .

الفـعل « نال » : « It reached him, came to him »، بمعنى «وصل إليه»، أى أن هذا الفعل يقع كذلك من الشيء على الشخص كما تفيد العبارة الإنجليزية بكل جلاء . وأحسب بعد ذلك كله أنه ينبغي على الجهلة أن يخرسوا ولا يفتحوا فمهم بكلمة !

* * *

كـذلك يخطِّئ الدعيُّ قـوله تعـالى فى الآية ٥٦ من سـورة «الأعراف» : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، حيث ورد خبر «إنّ» مذكّرا على حين أن اسمها مؤنث ، « وكان يجب (حسبما يقـول) أن يتبع خبرُ « إنّ » اسمَـها في التأنيث فيقـول : قريبة » (ص١٠٧) . وهو كلام يبعث على القهقهة ، إذ يشبه تصدّى طفل فى الروضة لسيبويه يبغى تخطئته . إن مثل هذا الأحمق لا يعرف أن الأسلوب العربى الأصيل كثيرا ما يُبقِى على صيغة التذكير فى الصفات التى على وزن « فعِيل » إذا كانت بمعنى « مفعول » مثل « لحيةٌ دهين » و « كفٌّ خضيب » و « امرأةٌ جريح » و « ناقةٌ طَعِين » ، أو إذا كانت بمعنى « ذات كذا » على تأويل « إن رحمة الله ذات قُرْب من المحسنين » ، أو للتمييز بين قرابة النَّسَب وبُعْده وبين قرابة المسافات وبُعْدها . وثمة اعتبارات أخرى تُطْلَب فى مظانها من

الكتب الموسّعة نضرب عنها صفحا لأننا لا نبغى التكثّر ، بل كل همنا أن نوضح لخالى الذهن ممن قد يقع فريسة لهذه التشويشات الطفولية أن الأمر أعمق مما يتغّم به هذا الصغير[1]. ومن ذلك أيضًا الآية ١٧ من « الشورى » : « وما يُدْريكَ ؟ لعل الساعة قريب »، والآية ٦٣ من « الأحزاب » : «وما يدريك ؟ لعل الساعة تكون قريبا»، والآية ٨٣ من « هود » : « وما هى من الظالمين ببعيد »، والآية ٣١ من « ق » : « وأُزْلِفت الجنةُ للمتقين غير بعيد »، والآية ٧٨ من « يس » : « قال : من يُحْيِى العظام وهى رميم ؟ »، والآية ٢٩ من « الذاريات » : « عجوزٌ عقيم »، والآية ٤١ من نفس السورة: « أرسلنا عليهم الريح العقيم »، والآية ٨ من « الإسراء »: « وجعلنا

---

(١) ومما تُحْذَف منه أيضًا « تاء التأنيث » الصفات التى على وزن « فَعُول » بمعنى «فاعل» مثل « امرأةٌ قتول » و « يمينٌ غَموس » و « حمامةٌ هَتوف » ، وكذلك بعض الصفات التى على وزن « فاعل » مما تنفرد به النساء مثل « طالق » و«حائض»، وصفات المبالغة التى على وزن « مِفْعال » مثل « فتاةٌ مِعْطار » و«طالبةٌ مِهْذار». وعلى الناحية الأخرى نجد للرجال صفات تنتهى بـ « تاء التأنيث » مثل « علاّمة » و « رحّالة » و « نسّابة » و « فهّامة »... وهكذا . المسألة إذن ليست بالبساطة ولا الخفة التى يظنها هذا الجهول . وفى « العهد العتيق » يوجد سفر بعنوان «الجامعة» ، وهو لقب لسليمان رغم صيغته التأنيثية ، فلماذا يقبل هذه ، ويقيم فى نفس الوقت الدنيا ويقعدها بسببِ « قريب » ، التى وُصِفَتْ بها «الرحمة» و « الساعة » فى القرآن ؟

جهنم للكافرين حصيرا ». أترى القرآن قد أخطأ فى ذلك كله وسكت عنه المشركون فلم يستغلوا هذه الأخطاء التى كان من شأنها أن تضربه فى الصميم ، إلى أن جاء هذا الصغير الهجّام فاكتشفها ؟

ومن شواهد ذلك الاستعمال فى الشعر العربى القديم قول امرئ القيس :

له الويل إن أمْسَى ولا أم هاشم قريبٌ ولا البسباسة ابنة يَشْكُرا

وقول عبيد بن الأبرص :

فنَفَّضَتْ ريشها وانتفضت وهى من نهضةٍ قريبُ

وهذا البيت الذى ورد بالصيغتين التاليتين :

عشيّةَ لا عفراءُ منك قريبةٌ فتدنو ولا عفراء منك بعيدُ

* * *

ليالىَ لا عفراء منك بعيدةٌ فتَسْلَى ولا عفراء منك قريبُ

وقول تأبط شرّا يصف الغول : « فخرَّتْ صريعًا لليدين وللجرانِ » وقول عبيد بن الأبرص أيضا : « قليلاً بها الأصوات إلا عوازفا ». ومما جاء فى شعر الأعشى من استعمال صيغة «فعيل» للمؤنث : «الخَمْر العتيق »، و « آلتْ (أى الناقة) طليحا » و « (ناقةٌ) مِقْلاتٌ دهين ». وفى شعر المثقب العبدى نقرأ فى وصف الناقة : « ماهرة

دهين » (والدهين : القليلة اللبن) ... إلخ .

وفى « مدّ القاموس » لوليم إدوارد لين و « محيط المحيط » لبطرس البستانى و « البستان » لعبد الله البستانى و « لاروس » (العربى)، وكلها (كما ترى) معاجم ألفها نصارى ، أن الصفة «قريب» إذا كانت للقرب المكانى أو الزمانى تُستَعمَل بصيغة واحدة للمذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . ومن ذلك قول السّمَوْأل اليهودى :

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلتُ لها : إن الكرام قليلُ

بل إن من اللغويين من يخطّئ إلحاق تاء التأنيث فى قولنا مثلا : «فلانة جريح»(١) .

* * *

٤ ـ ومن جرأة هذا العَيِىّ تخطئته قوله عز شأنه عن بنى إسرائيل فى الآية ١٦٠ من سورة « الأعراف » : « وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطا أُمَمًا »، إذ « كان يجب (فى وهمه) أن يذكّر العدد ويأتى بمفرد المعدود فيقول : اثنى عشر سبطا » (ص١٠٧)، مع أنه لا وجه

(١) انظر د. إميل يعقوب / معجم الخطإ والصواب فى اللغة / دار العلم للملايين / ١٩٨٣م / ١٠٤ .

لوجوب هذا التركيب ، بل التركيبان كلاهما جائزان ، لكن الجاهل يحسب أنه لا يصح إلا ما يعرفه فقط رغم أن ما يعرفه لا يعدو أن يكون فُتاتةً من الفُتات . وتوجيه الكلام فى الآية هو على النحو التالى: «وقطّعناهم اثنتى عشرة (قطعة ، وجعلنا هذه القطع) أسباطا أمما» . فـ « أسباطا أمما » بدل من « اثنتى عشرة » وليست تمييزا لها . ويتضح ما نقول إذا عكسنا التركيب فقلنا : « وقطعناهم أسباطا أمما اثنتى عشرة » . ومثلها فى القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى فى الآية ٢٥ من «الكهف» : «ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائةٍ سنين ، وازدادوا تسعا» بدلا من «ثلثَمائةِ سنةٍ» فى التركيب المعتاد ، وكلاهما صحيح . والمعنى : «ولبثوا فى كهفهم سنين ثلاثمائة» .

وقريب من ذلك قول كاتب سفر «العدد» من كتابهم المقدس فى الفقرة ١٣ من الفصل التاسع والعشرين : « أربعة عشر حَمَلاً حَوْليًا صحاح » بجمع « صحاح » على أساس أنها تابعة لـ «أربعة عشر» لا لـ « حَمَلاً حَوْليًا » ، وإلا لقال : «أربعة عشر حَمَلاً حوليا صحيحا» مثلما فعل فى سائر المواضع الأخرى من نفس الفصل . ومثله ما جاء فى الفقرة ١٧ من الفصل الثالث عشر من سفر « أخبار الأيام الثانى » من أنه قد «سقط قتلى من بنى إسرائيل خمسمائة ألف رجل منتخَبون» بدلا من «خمسمائة ألف رجل منتخب» بالإفراد

والجرّ لا بصيغة جمع المذكر السالم المرفوع . ومثل الآية القرآنية بالضبط ما جاء قبل ذلك فى الفقرة الثالثة من نفس الفصل من أن يربعام قد صافّ أبيّا « بثمانمائة ألفٍ منتخَبين من جبابرة البأس » وما جاء فى الفقرة ١٧ من الفصل الحادى عشر من السفر نفسه من أنه كان مع أليداداع « مائتا ألفٍ مسلّحون بالقسيّ والتروس »، ومع يوزاباد « مائة وثمانون ألفا متجردون للحرب » ... إلخ .

* * *

٥ ـ ومن سخافاته الطفولية أيضًا توهمه أن من الواجب تغيير قوله تعالى فى الآية ١٩ من سورة « الحج » : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » ليصبح « هذان خصمان اختصما فى ربهم » (ص١٠٧). وهو فى هذا يشبه صبيا صغيرا يمسك بمسطرة صغيرة فى يده يريد أن يقيس بها جبل الهيملايا . ألا فليعلم وليتعلم هو ومن صدّروه لتخطئة القرآن وطبعوا له كتابه وأطلقوه لينبح الإسلام أن كلماتِ مثل « خصْم » و « طائفة » و « حِزْب » و « فريق »، وإن اتخذت صيغة الإفراد ، تدل على جماعة من الناس . وقد وردت الضمائر العائدة على هذه الكلمات فى القرآن بصيغة جمع المذكر بناءً على هذا الاعتبار . قال تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا

المحراب ؟» (ص/٢١)، « ودَّتْ طائفة من أهل الكتاب لو يُضِلّونكم» (آل عمران / ٦٩)، « ثم أنْزَل عليكم من بعد الغَمّ أَمَنَةً نعاسا يَغْشى طائفةً منكم ، وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفسُهم يظنون بالله غير الحق ظَنَّ الجاهلية » (آل عمران / ١٥٤)، « فلْتَقُمْ طائفة منهم معك ولْيأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فلْيكونوا من ورائكم ، ولْتَأْتِ طائفة أخرى لم يصلّوا فلْيصلّوا معك » (النساء / ١٠٢)، « فلولا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » (التوبة/ ١٢٢) ، « فإن حزب الله هم الغالبون» (المائدة / ٥٦) ، « كُلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون » (الروم / ٣٢)، « ألا إن حزب الله هم المفلحون » (المجادلة / ٢٢)، « إنما يدعو حِزْبَه ليكونوا من أصحاب السعير » (فاطر / ٦) ، « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بَعْد ما عقلوه وهم يعلمون » (البقرة / ٧٥)، « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (البقرة / ١٠١)، « ويستأذن فريقٌ منهم النبىَّ يقولون : إن بيوتنا عورة » (الأحزاب / ١٣)، «إنْ تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم من بعد إيمانكم كافرين» (آل عمران / ١٠٠) .

هذه واحدة ، والثانية أنه إذا ثُنِّىَ « الخصم » أو « الطائفة » أو

«الفريق»[1] فى القرآن . فإنه يستعمل لها ضمير جمع الذكور إذا كانت العلاقة بين الخصمين أو الطائفتين أو الفريقين علاقة خلاف مثل : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » (الحج / ١٩)، « إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا : لا تخف ، خصمان بَغَى بعضنا على بعض » (ص / ٢٢)، « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأَصْلِحُوا بينهما » (الحجرات / ٩)، « فإذا هم فريقان يختصمون » (النمل / ٤٥). ويبدو لى أن الحكمة من وراء ذلك هى الإيماء ما تستتبعه الخصومة من اشتباك وتداخل بحيث يموج بعضهم فى بعض ولا يعودان منفصلّين أو متمايزين . وهذا كله مما لا يقدر أمثال هذا الجاهل أن يدركوه من تلقاء أنفسهم . ولعله بعد يد المساعدة التى مُدَّت له يكون قد استوعب الدرس ، وإن كنت أشك كثيرا فى ذلك لما يبدو من بلادة ذهنه وسواد قلبه تجاه سيدنا وسيّده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٦ ـ أما الغلطة السادسة التى لا وجود لها إلا فى ذهن ذلك المأفون المسكون بالأوهام والضلالات فهى زعمه أنه كان يجب أن يقال : « وخُضتُم كالذين خاضوا » بدل قوله تعالى فى الآية ٦٩ من

(١) أما كلمة « حزب » فلم تأت فى القرآن مثناة .

سورة « التوبة » : « وخضتم كالذى خاضوا » (ص١٠٧) ، أى أن المشبه به ، فى نظره الكليل ، هو جماعة أخرى من الخائضين . وقبل أن أفنّد هذا التنطع الغشوم أحكى القصة التالية : فقد حضرت ، وأنا فى أكسفورد فى أواخر السبعينات ، محاضرة لشاب متحذلق من المستشرقين كان هجّاما طويل اللسان مع طلابه ، فسمعته يقول أثناء المحاضرة إن فى القرآن شذوذات لغوية، فانتظرتُ حتى انتهى الدرس وخرج فخرجت معه أسأله أن يضرب لى أمثلة على هذا الذى يدّعيه ، فأشار إلى هذه الآية قائلا : تجد الإشارة إليها فى تفسير الطبرى . ولم أكذّب خبرا ونزلت فى الحال إلى مكتبة المعهد وقلّبت تفسير الطبرى فلم أجده ذكَر شيئا من ذلك ، فقلت : أنظر فى تفسير النيسابورى الذى على هامشه ، فوجدته ، بعد أن شرح الآية على أساس أن معناها : « وخضتم (أيها المنافقون) كالخوض الذى خاضه أمثالكم فى الأزمنة السابقة » ، قد أضاف هذه العبارة : «وقيل : أصله « كالذين » فحذف النون» . فاستغربتُ من تدليس المستشرق الصغير الذى أكد لى بقوة أن الطبرى هو قائل ذلك ، بل لقد أوْهَم كلامه أن هذا هو التفسير الوحيد الذى قال به ذلك العلاّمة الجليل . وكل ذلك غير صحيح كما قلت ، بل قائله هو النيسابورى، الذى أرجأه إلى ما بعد الفراغ من التفسير الذى ذكرتُه ، وأورده بصيغة التمريض :

« قيلَ »، التى تدل على أنه غير مقتنع به . والشاهد فى هذه القصة أن صويحبنا إنما يردد ما يلقنونه إياه دون فهم كالببغاء !

ولْنورد الآية من بدايتها حتى تنجلى الحقيقة لمن لهم أعين يبصرون بها ، وآذان يسمعون بها ، وقلوب يفقهون بها ، أما الذين ختم الله على قلوبهم ، وجعل فى آذانهم وقرا ، وعلى عيونهم غشاوة، فهؤلاء ميؤوس من حالهم . تقول الآية ، وقد وردت فى سياق تعنيف المنافقين وفضح مؤامراتهم وألاعيبهم الصبيانية وخوضهم العابث فى سمعة النبى عليه السلام وفى آيات القرآن : « كالذين من قبلكم . كانوا أشدّ منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخَلاقهم ، فاستمتعتم بخَلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخُضْتُم كالذى خاضوا » . وواضح تماما أن الآية تقول إن المنافقين قد استمتعوا بنصيبهم كاستمتاع مَنْ قبلهم بنصيبهم ، فما الذى يقتضى المنطق أن نفسّر به الجملة التالية بعد ذلك فى الآية؟ أليس من الطبيعى أن نقول: « وخضتم كالخوض الذى خاضوه» حتى ينسجم الكلام بعضه مع بعض ويكون المشبّه به فى الجملتين هو استمتاع مَنْ قبلهم وخَوْضهم ؟ لو قلنا : «استمتعتم كاستمتاعهم ، وخضتم كالذين خاضوا » لذهب الانسجام من الآية

ءى الفور وَعبحـت قلقة . ثم ما معنى « وخضتم كالذين خاضوا» ؟ وإذا كان المقصود هم الذين قبلهم ، فلماذا لم تستعمل الآية الكريمة الضمير بدلا من الاسم الموصول فتقول : « وخضتم مثلهم » بغض النظر عن غموض المعنى ؟ ولنفترض أننا ضربنا صفحا عن ذلك كله وقلنا إن المقصود فعلا هو «وخضتم كالذين خاضوا» ، فهل يكون ذلك خطأ لغويا ؟ كلا . ذلك أن المفسِّر الذى شرحها هذا الشرح قد أقام كلامه على أساس أن من العرب القدماء من كان يستعمل « الذى » بمعنى « الذين »(١). ليست المسألة إذن مسألة خطإ بل مسألة فصاحة وعدمها ، وهذا هو الذى دفعنى إلى سوق الأسباب المنطقية والبلاغية التى تجعلنى أرفض ذلك التفسير ، وهذا كل ما هنالك(٢).

* * *

(١) ومن ذلك قول الأشهب بن رميلة :

وإن الذى حانت بفلجٍ دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد

كما أن من العرب القدماء أيضاً من كانوا يستعملون فى حالة الرفع « الذُون » ، وفى حالتى النصب والجر « الذين » . والذين لهم إلمام بكتب النحو الموسّعة يعرفون جيدا البيت الذى يقول صاحبه : « نحن الذُون صبَّحوا الصباحا ... » ، وهى لغة الهُذَليين .

(٢) سبق أن تناولت هذه المسألة بما فيها قصة المستشرق الصغير فى كتابى « من الطبرى إلى سيد قطب ـ دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه » (دار الفكر العربى / ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م / ١٦٥ ـ ١٦٧) .

٧ ـ ونبلغ الاعتراض السابع ، وفيه يقول عبدنا الفاضى (الذى يمتلئ كتابه الحقير بالأخطاء النحوية الأولية ثم يأنس فى نفسه الوقاحِ الجرأةَ على التهجم على لغة القرآن الكريم رعونةً منه وطيشا) إن فى قوله تعالى فى الآية ١٠ من سورة « المنافقون » : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدَكم الموتُ فيقول : ربِّ ، لولا أخّرتنى إلى أجل قريب فأصَّدّقَ وأكُنْ من الصالحين » خطأ نحويا ، إذ كان المفروض (حسبما يقول) أن يُنْصَب فعل الكينونة عطفا على «أصَّدّق» (ص١٠٨) . وأنا على يقين أنه لا يعرف لم نُصِب هذا الفعل الأخير . إنما هو كلام وُضِع على لسانه فردّده كالببغاء دون أن يعى معنًى أو يدرك مغزى . أجل ، أنا موقن تمام الإيقان أنه لا يفهم أن سبب نصب هذا الفعل هو مجيئه بعد « فاء السببية » ، لكن فلْنَطْوِ هذه ولنسارع إلى القول بأنه ما دام القرآن قد استعمل لفظا أو تركيبا أو إعرابا ما فهو صواب لا يأتيه الغلط من بين يديه ولا من خلفه حتى لو قلنا إن الرسول عليه السلام هو مؤلفه ، فهو عربى تؤخذ عنه اللغة ولا يراجَع فى شىء منها ، فضلا عن أن أحدا من المشركين أو المنافقين أو نصارى العرب ويهودهم لم يعترض على شىء من لغة القرآن رغم حرصهم على التشكيك فيه بكل وسيلة .

وعلى أية حال فإن فى جزّم فعل الكينونة فى الآية الكريمة مغزى

دقيقا ، وهو أن قائل هذا الكلام ، رغم تمنّيه تأجيل موته قليلا ، يعلم أن الاستجابة لأمنيته أمر مستبعد . كيف ذلك ؟ المعروف أن « إنْ » الشرطية تدل على استبعاد وقوع الشرط أو استحالته ، ومعنى الكلام على أساس جزم « أكُنْ » هو : « لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدّق ، وإن حدث هذا أكن من الصالحين » . أى أنه يعرف أن تأخير موته إلى أجل قريب هو من الاستحالة بمكان . ألم يقل القرآن: « إذا جاء أجلُهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون »(1) ؟ ألم يكن جواب الله الله على من سأله الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا لعله يعمل صالحا ينجيه مما هو فيه من عذاب النار : « كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبْعَثون »(2) ؟ ألم يعقّب القرآن على من نطقوا بكلمة الإيمان فى سَقَر قائلا : « أنّى لهم التناوش (أى كيف يمكنهم أن يفوزوا بالإيمان) من مكان بعيد (أى بعد أن انقضَت الدنيا ولم يعد من سبيل إلى تدارك ما فات) ؟ » ؟ وعلى عادة القرآن الكريم نراه قد أدّى هذا المعنى بغاية الإيجاز ، إذ لم يفعل أكثر من تسكين نون « أكون » بدلا من فتحها . وهذه هى

(1) يونس / 49 .

(2) المؤمنون / 100 .

الفحولة القرآنية المعروفة ، أما الصغار التافهون فأنَّى لهم أن يفهموا ذاك ؟

هذا ، وللقدماء توجيه آخر يختلف بعض الشيء عن توجيهى ، إذ يقولون إن « أكُنْ » قد جُزِمَتْ عطفا على موضع « فأصَّدَّقَ » على أساس أن تقدير الكلام هو : « إن تؤخرنى أصَّدَّقْ » . وهو توجيه مشكور ومقدور ، لكن ما قلتُه يذهب إلى الهدف مباشرة دون التعريج هنا أو ههنا ، علاوة على أنى شفعته بالمغزى الذى أحسب أن الآية قد أرادت الإيماء إليه ولم أسُقْه مجردا كما فعل أجدادنا ، رضى الله عنهم وأثابهم على جهودهم وسبْقهم . وتتمةً لهذا المبحث نقول لمن يريد أن يتعلم ويفهم إن طريق الإعراب ، وبخاصة قبل جمع اللغة وتدوينها ، أوسع كثيرا مما يُظَنّ : فمثلا فى قولنا : « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » نجد أن الفعل « تشرب » يجوز فيه الرفع والنصب والجزم ، وفى قولنا : « لا حول ولا قوة إلا بالله » يجوز فى إعراب اسم « لا » والمعطوف عليه عدد من الصُّوَر تزيد على عدد أصابع اليد ، وفى قولنا : « ما كلُّ ما يلمع ذهبا »[1] يجوز رفع الخبر ونصبه ... وهكذا ، إلا أن المحدودى الأفق يتفلحسون فيوقعون أنفسهم

---

(١) هذا مثل إنجليزى فرنسى ، ونصه فى هاتين اللغتين هو :
"All that glitters is not gold ", " Tout ce qui brille n'est pas or" .

فى المعاطب ! وبالمناسبة فثَمّ قراءة أخرى بنصب « أكون »، وكلتا القراءتين عربية بليغة ، وكل ما فى الأمر أن لكل منهما مغزى غير الذى للأخرى .

* * *

٨ ـ أما الاعتراض الثامن فهو قول الأخِر إن الضمير فى كلمة «بنُورِهم» من قوله تعالى عن المنافقين فى الآية ١٧ من سورة «البقرة» : « مَثَلُهم كمَثَل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » كان يجب أن يكون مفردا فيقال : « ... كمثل الذى استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنوره » (ص١٠٨) . والحق الذى كرّرناه مرارا هو أن القرآن متى قال شيئا فهو صواب مليونًا فى المائة ، إذ كلامه هو القاعدة التى يقاس عليها ولا يصح أن يحاكمه أحد إلى غيره ، وإلا قلبنا الأمور بذلك رأسا على عقب . إن معنى الآية هو : « مَثَلُهم (أى مثل المنافقين مع رسول الله) كَمَثَل الذى استوقد نارًا (لرفاقه)، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم (أى بنور أولئك الرفاق) » . والسبب فى أخذى بهذا التفسير هو أن المنافقين لم يحدث أن استوقدوا نارًا ليَرَوْا على ضوئها الحق والهدى ، إذ ليست هذه شيمة المنافقين ، بل الذى استوقدها

هو الرسول عليه السلام ، فقد أتى بنور القرآن هدايةً للبشر ، لكن المنافقين غطّوا أعينهم وأغلقوا قلوبهم فى وجه دعوته وهدايته ، وهو ما عبّر عنه القرآن بأن الله قد ذهب عندئذ بنورهم ، أى بمقدرتهم على الرؤية والاستجابة لداعى الخير .

وتركيب هذه الآية بما فيه من ألفاظ محذوفة يشبه قوله عز وجل فى الآية ١٧١ من نفس السورة : « ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَل الذى ينْعِق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء » ، أى « مثل الذين كفروا (مع رسول الله) كمثل (الراعى) الذى ينعق بما لا يسمع (من البهائم) إلا دعاء ونداء » ، إذ إن ما يقول الراعى حينما ينعق بها لا يعدو ، بالنسبة إليها ، أن يكون مجرد أصوات يدعوها بها لا أكثر ، أما معناه على وجه التعيين فشىء يفوت إدراكها تمام الفوت[1] . ومثله كذلك قوله تعالى فى الآية ٢٦١ من ذات السورة : «مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمَثَل حبةٍ أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة» . ذلك أن المنفقين لا يشبهون الحبّة ، بل الذى يشبهها هو ما ينفقونه من مال . وتقدير الكلام هو : «مثَل الذين

(١) وقد قال المفسرون القدامى ذلك فى بعض أقوالهم فى تفسير هذه الآية ، ولا أدرى لماذا لم يقولوا به أيضاً فى الآية التى نحن بصددها .

ينفقون أموالهم فى سبيل الله (مع ما ينفقونه) كمثل (الزارع مع ما يبذره من) حبة أنبتت سبع سنابل ...»[1]. وهذا من أساليب القرآن الموجزة المحكمة التى تعتمد على يقظة السامع أو القارئ واكتفائه بالقليل عن تطويل الكلام حيث لا تكون هناك نكتة بلاغية فى تطويله .

* * *

٩ ـ ومن الإيجاز القرآنى البليغ نَصْبُ « المقيمين الصلاة » فى قوله جل جلاله فى الآية ١٦٢ من سورة «النساء» : «لكنِ الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليك وما أُنْزِلَ من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما» ، بهدف تخصيصهم بالذكر على سبيل المدح لبيان أهمية الصلاة فى الدين ، إذ هى الرباط الذى يصل المؤمن بربه ويجعله دائمًا على ذكر منه . وليس المقصود مجرد «المصلّين» بل «المقيمين الصلاة» ، أى الذين يؤدونها على وجهها ، وتظهر فى قلوبهم وأعمالهم ثمرتها ، فهؤلاء هم الجديرون بالمدح لا الذين يأتون

(١) وقال المفسرون القدامى ذلك أيضاً فى تحليلهم لهذه الصورة .

الصلاة وهم كسالى مراءاةً للناس أو لمجرد التخلص من عبئها . والمعنى على ذلك هو : «لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون ...» وخاصةً المقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ... » أو ما أشبه . وهذا من وظائف الإعراب فى الأسلوب العربى الأصيل ، إذ بإبدال حركة بحركة أو حرف بحرف يستغنى المتكلم عن لفظةٍ أو جملة بأكملها . ومن ذلك قول خرنق بنت هفّان :

لا يَبعَدَنْ قومى الذين همو سُمّ العُداة وآفة الجُزْرِ
النازلين بكل معتركٍ والطيبون معاقدَ الأُزْرِ

وهذان البيتان أيضاً :

إلى الملك القَرْم وابن الهما م وليث الكتيبة فى المزدَحَمْ
وذا الرأى حين تغم الأمو ر بذات الصليل وذات اللحم

وكذلك قول ابن الخياط :

وكلّ قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نُمَيْراً أطاعت أمر غاديها
الظاعنين ولما يُظْعِنوا أحدا والقائلون : لمن دارٌ نخلّيها؟

بيد أن جاهلنا الذى لا يفقه شيئا فى العربية يتطاول على الآية الكريمة قائلا : « كان يجب أن يُرْفَع المعطوف على المرفوع فيقول :

والمقيمون الصلاة » (ص١٠٨) . ترى ماذا هو قائل إذا ذكرنا له أن كلمة «الكريم» فى قولنا مثلا : «ذهبتُ مع محمدٍ الكريم» يجوز فيها، إلى جانب الخفض، الرفعُ على تقدير «ذهبت مع محمدٍ، الذى هو الكريم» ، وكذلك النصب على تقدير «ذهبت مع محمدٍ، أعنى الكريمَ لا غيره» ، أو إذا قلنا له إن كلمة «خَرِب» فى العبارة المشهورة : «هذا جُحْر ضَبٌّ خَرِب» يجوز رفعها نعتًا لـ «جُحْر» ، وهو الأصل ، كما يجوز خفضها لمجاورتها كلمة «ضَبّ» المجرورة ، أو إذا قلنا له إنه يجوز فى الجملة التالية : «ولم يكن لهم من رأس مال غير جِدّهم واعتمادهم على أنفسهم» رفع كلمة «غير» ونصبها وجرّها؟ صحيح أننا الآن نميل إلى إجراء إعراب واحد فى كثير من هذه الحالات ، لكن الأسلوب القديم الأصيل يتمتع بمرونة تفتقدها أساليبنا الحديثة التى تُراعَى فيها القواعد العامة عادة . أيًا ما يكن الأمر فلا ينبغى للجهلة أن يستطيلوا بجهلهم على القرآن الكريم .

* * *

١٠ ـ أما ما أقدم عليه هذا الطائش من تخطئة قوله تعالى فى الآية العاشرة من سورة «هود» : «ولَئِنْ أذقناه نَعْماءَ من بعد ضَرّاءَ مسّتْه لَيقولَنّ : ذهبَ السيئاتُ عنى » فهو فضيحة الدهر ، إذ معناه أنه

لا يُلِمّ حتى بالقواعد الأولية التى يعرفها تلميذ المرحلة الابتدائية .
قال، فضّ الله فاه : «كان يجب أن يجرّ المضاف إليه فيقول : بعد ضرّاءِ مسّتْه» (ص١٠٨) . والحمد لله أنْ عرف هذا المنكوس أن «ضرّاء» مضاف إليه ، أما ظنّه بأن جرّها يستلزم وضع كسرة (واحدة) تحت آخر حروفها فممّا يُضْحك المَكْروب، إذ معناه أولا أنه لم يسمع بأن الممنوع من الصرف لا يُجَرّ بالكسر بل بالفتح (بفتحة واحدة). هذه واحدة ، والثانية أن الكلمات التى تُجَرّ بالكسر لا بد أن توضع تحت آخر حروفها كسرتان لا كسرة واحدة، لأن الكسرة الواحدة هى علامة بناء لا إعراب .

* * *

١١ ـ وفى قوله تعالى فى الآية ٨٠ من سورة «البقرة» حكايةً لمزاعم اليهود وأمانيهم الباطلة من أنهم ، لكونهم أبناء الله وأحباءه ، لن تمسهم النار بسبب ذنوبهم «إلا أياما معدودة» يقول العبد الفاضى: « كان يجب أن يجمعها (أى يجمع كلمة «معدودة») جمع قلة حيث إنهم أرادوا القلة فيقول : أياما معدودات» (ص١٠٨). والسؤال هو : وهل عرف هذا الجهول على وجه اليقين عدد الأيام التى سيمكثها اليهود حسب اعتقادهم فى النار قبل أن

يتكلم عن أى التعبيرين أصلح لها من الآخر ؟ ثم هناك سؤال ثانٍ : ترى من قال له إن أحد التعبيرين يدل على القلّة ، والآخر على الكثرة؟ إن الدلالة على القلة ناشئة من أن الأيام التى سيقضونها فى النار أيام يمكن عدّها بسهولة ، فصيغة المفعول من «عَدَّ» هى فى ذاتها الدالّة على القلة بغض النظر عن إفرادها أو جمعها . ولقد وردت هذه العبارة ذاتها ، وعلى لسان اليهود أيضًا ، فى موضع آخر من القرآن ، مع استبدال كلمة «معدودات» بـ «معدودة»[1] بما يدل على صحة ما قلت . كما أن معظم المفسرين الذين رجعتُ إليهم قد ذكروا أن كلتا الصيغتين فصيحة دون أن يشيروا إلى وجود أى فرق بينهما . مفسر واحد منهم فقط ذكر أن وصف الجمع غير العاقل بصيغة المفرد المؤنث يدل على الكثرة ، بعكس صيغة جمع الألف والتاء ، فى مقابل مفسّر آخر ذكر العكس .

والملاحظ أن دلالة الجمع على القلة أو الكثرة ليست من الأمور الحاسمة أو المطردة بل من المسائل التغليبية . وبوجه عام فإن صيغة جمع التكسير باستثناء «أفْعُل وأفعال وأفْعِلة وفِعْلَة» تدل على الكثرة ، على العكس من هذه الصِّيَغ الأربع وصيغة جمع المؤنث السالم ، وإن

(١) آل عمران / ٢٤ .

لم يمنع هذا أن يحدث العكس ، والأمثلة على هذا وذاك معروفة . أما كون أيام اليهود فى النار «معدودة» أو «معدودات» فدلالة القلة فيها ناشئة من أن تلك الأيام يسهل عدّها لا من صيغة الإفراد أو الجمع. ولا معنى إذن لهذا الذى صدّع به الجهول أدمغتنا .

ومن الممكن جدا أن يكون القرآن الكريم قد أورد فى الموضعين المشار إليهما كلام اليهود بنصه ، إذ لعلّهم كانوا تارة يستعملون صيغة المفرد المؤنث ، وتارة صيغة جمع المؤنث السالم، فحكى القرآن أقوالهم فى كل مرة كما هى. كذلك من الممكن أن تكون «أياما معدودات» هنا معناها «أياما معيّنات» كما فى قوله عز شأنه عن الصيام إنه كُتِبَ على المسلمين «أياما معدودات» ، أى محددات هى أيام شهر رمضان ، وذلك واضح من ذكر شهر رمضان عقب ذلك. أيا ما يكن الأمر فإن المسمىّ «عبد الفاضى» يهرف بما لا يعرف ، ولقد ظلمه الذين لقّنوه هذه التفاهات فانطلق فى غباءٍ يسردها سردا . وعلى أية حال فها هى ذى عبارة «أيام معدودات» يستعملها الكتاب المقدس عند هذا الفاضى وأمثاله فى غير جمع القلة بالمعنى الذى يفهمه : «الحياة الصالحة أيام معدودات»[1]. ذلك أن الحياة الصالحة ، مهما

(١) يشوع بن سيراخ / ٤١ / ١٦ .

قصرت ، لا يمكن أن تكون أيامًا قليلة إلى هذا الحدّ. أما فى القول التالى المنسوب لأيوب فإنه يصف سنوات حياته بأنها «معدودة» ، وسنوات حياة الشخص أقل فى العدد من أيامها بكل يقين ، وبخاصة أن أيوب قالها وهو مريض ، أى بعد أن قطع شوطا طويلا من عمره . قال : «فإن سنواتى المعدودة تنقضى فأركب طريقا لا أعود منه»[1] . فما رأى صُوَيْحِبنا الأحمق فى هذين الاستعمالين اللذين يجريان بعكس ما يدّعى فى صيغتَىْ «معدودة» و «معدودات» ؟

* * *

١٢ ـ وهنا نصل إلى الاعتراض الثانى عشر الذى يقول فيه الببغاء إن عبارة « أياما معدودات » فى قوله تعالى فى الآيتين ١٨٣ ـ ١٨٤ من سورة «البقرة» : «يا أيها الذين آمنوا ، كُتِب عليكم الصيام كما كُتِب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أيامًا معدودات ... » كان ينبغى أن تُغيَّر إلى «أيامًا معدودة» على أساس أن رمضان ثلاثون يوما ، والثلاثون ليست بالعدد القليل . وقد سبق فى الرد السابق أن فنّدنا هذا السخف ونسفناه نسفا، وقلنا إن «أياما معدودات» هنا لا تعنى القلة أو الكثرة بل تعنى أنها أيام محدّدة هى

---

(١) أيوب / ٦ / ٢٢ .

أيام شهر رمضان من كل عام . وهو نفس المعنى فى قوله تعالى : «وما نؤخرّه إلا لأجل معدود»[1] ، وقوله : «ولئن أخّرْنا عنهم العذاب إلى أُمّة معدودة (أى إلى وقت محدّد) ليقولُنّ : ما يحبسه ؟»[2] . و«الأجل» و «الأمة» معناها «الميقات» ، والميقات لا يُعَدّ، وإنما يحدَّد .

* * *

١٣ ـ ويستنكر عبد الفاضى استخدام القرآن الكريم لصيغة «إلياسين» (بدل «إلياس») فى قوله عز شأنه في الآية ١٣٠ من «الصافات» : «وإنّ إلياس لمن المرسلين * ... * سلامٌ على إلياسين» ، وكذلك صيغة «سِينين» (بدل «سيناء») فى قوله سبحانه فى الآية الثانية من سورة «التين» : «وطُور سِينين» قائلا إن الصيغتين المذكورتين هما صيغتا الجمع من «إلياس» و «سيناء» ، «فمن الخطإ لغويا تغيير اسم العَلَم حبًّا فى السجع المتكلّف» (ص١٠٩) . والواقع أن الأمر أبسط من هذا كله ، إذ معروف أن الأعلام حين تنتقل من لغة إلى لغة أخرى تعروها عادةً تحويرات فى حروفها وضبطها ونبْرها كما فى «يوحنا» مثلا ، الذى حوّره اللسان العربى فصار «يحيى» .

---

(١) هود / ١٠٤ .

(٢) هود / ٨ .

وقد يغدو للعَلَم أكثر من نطق فى اللغة التى انتقل إليها كما هو الحال عندنا بالنسبة لـ «أرسطو» و «أرسطوطاليس» و «رسطاليس»، و«أهْلَوارْد» و «آلْوَارْد» و «أُلْفَرت» (وهو اسم مستشرق ألمانى معروف)، و «جبرائيل» و «جبرئيل» و «جبريل» و «جبرين» و«غبريال». ومعروف أيضًا أن لاسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى اللغة الإنجليزية مثلا كذا صيغة مثل «Mahomet» و «Mahound» و«Muhammed» و«Muhammad». وفى ضوء هذا فإن من السهل الإشارة إلى أن العرب ينطقون اسم شبه الجزيرة التى تقع فى شمال شرق مصر بعدة صور : «سِينا» و «سِيناء» و«سَيْناء» و «سَيْنين» و«سِينين»[1]. والشيء ذاته يقال فى اسم النبى الكريم الذى نحن بصدده ، إذ يقولون : «إلياس» و «إيليس» و«إلياسين». وقد اختار

(١) هذا الجاهل لا يعرف أن أى عربى ، مهما كانت معرفته بلغته قاصرة ، لا يمكن أن يجمع «سيناء» جمع مذكر سالما لأنه اسم علم على مكان لا على شخص. وحتى إن غضضنا الطرف عن عدم جواز جمعه جمع مذكر سالما فإنه إنْ جُمِع هذا الجمع كان جمعه على «سينائين» لا على «سينين». ومن الواضح أن الجاهل لا يفرق بين القرآن وبين ذلك المستشرق الذى كان يظن أن «الزيتون» هو جمع المذكر السالم من «زيت»، فكان يقول : «الزيتون» (فى حالة الرفع)، و «الزيتين» (فى حالتى النصب والجرّ)!

القرآن الكريم فى كل من الموضعين اللذين نحن بصددهما الصيغة التى تناسب السياق محافظةً منه على الإيقاع الموسيقى ، أما فى غير ذلك فقد استخدم الصيغة الأشيع ، وهى «سيّناء»[1] و «إلياس»[2] ، فليس فى الأمر جمع ولا تكلف سجع ولا يحزنون .

ومثل «إلياس» فى ذلك اسم حَمِى موسى ، الذى ورد فى بعض الترجمات العربية للكتاب المقدس «يثرو» ، وفى بعضها الآخر «يثرون» ، فهل نقول مثلما قال هذا الأحمق إن «يثرون» هى جمع مذكر سالم لـ «يثرو» ؟ إننا أعقل من ذلك . لكن الأدهى أن يتكرر فى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ذكر الشخص الواحد بعدة أسماء مختلفة كتسمية حَمِى موسى هذا : «رعوئيل» مرة ، و«يثرون» مرة أخرى ، و« حوباب بن رعوئيل» مرة ثالثة[3] . وفى سفر «أخبار الأيام الأول » أسماء أعلام تخالف لفظ الأسماء المذكورة فى غيره من أسفار الكتاب المقدس . وقد حاول شُرّاح ذلك الكتاب بطريقتهم البهلوانية تفسير هذه الظاهرة المضحكة بأن اللفظ قد تغيّر على مرّ

---

(١) فى الآية ٢٠ من سورة «المؤمنون» .

(٢) فى الآية ٨٥ من «الأنعام» ، والآية ١٢٣ من «الصافات» .

(٣) انظر «خروج» / ٣ / ١ ، و ٤ / ١٨ ، و١٨ / ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، وعدد / ١٠ / ٢٩ ، وقضاة / ٤ / ١١ .

السنين ، أو أنه كان للشخص الواحد عدة أسماء ، أو أن الأمر مجرد ألفاظ مترادفة(١) . فهذه هي المصيبة حقا ، أما الوقوف عند «إلياس» و «إلياسين» فهو تنطع فارغ . وفي نهاية المطاف ألفت نظره، إن كان عنده نظر ، إلى التناقض الرهيب في اسم عيسى عليه السلام بين سفر «نبوءة أشَعْيا» وبين إنجيلَيْ متّى ولوقا ، إذ جاء في «أشَعْيا» (١٤/٧ ، و٦/٩ ـ ٧) أن العذراء ستلد لله ابنا وتسميه «عمّانوئيل»، بينما في «متّى» (٢١/١) أنها ستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع ، وهو نفسه ما جاء على لسان جبريل عليه السلام حسب رواية «لوقا» (٣/١)، وإن انتكس الكلام عنده عقيب ذلك إذ يعود فيقول : «هذا كله لكي يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل : هو ذا العذراء تحمل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمّانوئيل ، الذى تفسيره : الله معنا ». وبطبيعة الحال لم يُسَمَّ المسيح عليه السلام يوماً « عمّانوئيل» .

* * *

١٤ ـ كذلك يعترض المتنطع على استخدام الآية ١٧٧ من سورة «البقرة» لكلمة «البِرّ» وصفاً لـ «من آمن بالله واليوم الآخر ...» على

---

(١) انظر مثلا الحواشى الملحقة بآخر «العهد العتيق» فى ترجمة الكتاب المقدس الكاثوليكية (دار المشرق / بيروت / ١٩٨٦م / ص١٢ / نهر٢ / التعليق على الفقرة الثالثة من الفصل الأول من «سفر أخبار الأيام الأول»).

النحو التالى : «ليس البِرَّ أن تولوّا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البِرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكةِ والكِتَابِ والنبيين وآتى المال على حبّه ...» ، مؤكدا أنه كان يجب أن يقال : « ولكن البِرّ هو الإيمان بالله واليوم الآخر ...» لأن البِرّ هو الإيمان لا المؤمن كما قال (ص١٠٩) . وهذه أيضاً من الأمارات على جهله الشنيع بلغة الضاد ، فمن الواضح أنه لا يعرف شيئا اسمه استخدام المصدر صفةً مثل : «رَجُلٌ عَدْلٌ ، وامرأةٌ صِدْقٌ» بما يوحى أنهما قد بلغا الغاية فى العدل والصدق بعد أن أضحيا هما العدل والصدق ذاته . ومن شواهد هذا الاستعمال فى الشعر العربى قول الشاعر القديم : «فإنما هى إقبالٌ وإدبار» . ومثله فى الكتاب المقدس عند المتنطع وأشباهه : « وكانت الأرض كلها لغةً واحدة وكلاماً واحدا »[1] ، وكان ينبغى ، بناءً على فهم هذا المأفون ، أن يقال : «وكان سكان الأرض كلهم يستعملون لغة واحدة وكلاما واحدا» . ومثله أيضاً : «كانتا (أى زوجتا عيسو بن إسحاق) مرارة نفس لإسحاق ورفقة»[2] . ومثله : «هو (أى الربّ) فَخْرُك»[3] ، والمفروض ، حسب كلام الغبىّ ، أن يقال : « هو سبب

---

(١) تكوين / ١١ / ١ .

(٢) تكوين / ٢٦ / ٣٥ .

(٣) تثنية الاشتراع / ١٠ / ٢١ .

فخرك». ومثله قول يواب لأبشاى أخيه : «إنْ قَوِىَ علىَّ الأراميون تكون أنت نجدة»[1]. ومثله : «صنَّاع التماثيل كلهم باطل»[2]، وكان يجب ، طبقا لتنطع صُوَيحِبنا ، أن يقال : «صنَّاع التماثيل كلهم مبطلون». ومثله : «وتخلِّفون اسمكم لعنة لمختارِىَّ»[3]، حيث استُخدِمت «اللعنة» وصفا رغم أنها مصدر مثل «البرّ». ومثله : «فيكونون سُبَّةً ودهشةً ولعنةً وعارًا»[4]. ومثله : «سُبُلُه (أى سبل الله) عَدْل»[5]. وبعد فأرجو أن يكون ذلك الأحمق قد تعلم الدرس ، وإن كنتُ أرتاب فى هذا .

ونحن الآن كثيرا ما نقول مثلا : «فلان هو الوفاء مجسَّمًا» و«فلانة هى الفتنة تمشى على قدمين» أو «هى الظَّرْف كلّه»، وهو قريب مما جاء فى الآية الكريمة . وهناك توجيهات أخرى للآية لا داعى لسَوْقها ، ففيما قلناه غُنْية . وقد تكرر هذا الاستعمال فى السورة ذاتها بعد اثنتى عشرة آية ، وذلك فى قوله تعالى : «وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البِرَّ من اتَّقَى». ومن غير المعقول

(١) أخبار الأيام الأول / ١٩ / ١٢ .

(٢) نبوءة أشعيا / ٤٤ / ٦ .

(٣) نبوءة أشعيا / ٦٥ / ١٥ .

(٤) نبوءة إرميا / ٤٢ / ١٨ .

(٥) نبوءة دانيال / ٥ / ٣٤ .

أن يكون صاحب القرآن من الضعف فى اللغة بحيث يتكرر منه هذا الخطأ فى تلك المسافة القصيرة أو أن يكون العرب من كافرين ومسلمين من الجهل بحيث لا يتنبهون لذلك الخطإ أو يكون المشركون والمنافقون واليهود والنصارى من المجاملة لمحمد بحيث يصمتون أمام هذا الغلط ولا يُحْرِجونه ويشنّعون به فى الآفاق .

ولزيادة الفائدة نضيف أن الصفة فى هذه الحالة تلزم عادةً صيغة الإفراد والتذكير فنقول : «رجلٌ عَدْلٌ ، وامرأةٌ عَدْلٌ ، ورجلان عَدْلٌ ، وامرأتان عدلٌ ، ورجالٌ عدلٌ ، ونساءٌ عَدْلٌ» ، وإن سُمِع أحيانا «رجال عُدُول» . وقس على ذلك «رجلٌ صِدْقٌ ، وامرأةٌ صدقٌ ، ورجلان صدقٌ ، وامرأتان صدقٌ ، ورجالٌ صدقٌ ، ونساءٌ صدقٌ» ... وهلم جرا. وفى النهاية نسوق الشاهد التالى من الكتاب المقدس عند صويحبنا الجاهل حيث يوصف المسيح عليه السلام بأنه « بِرّ » ، بالضبط كما فى الآية الكريمة التى لا تعجب المتنطع : « المسيح يسوع ، الذى صار لنا من الله حكمة وبراً وقداسةً وفداء»[1] ، وكذلك هذا الشاهد الذى يقول فيه بولس : «لكى نصير نحن برّ الله فيه »[2] . وهذان الشاهدان هما الضربة القاضية لذلك المتنطع ومن سلّطوه على

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثس / ١ / ٣٠ .

(٢) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثس / ٥ / ٢١ .

هلاكه! وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر فنحبّ أن نذكّر هنا بأسماء الأعلام التي هي في الأصل مصادر ، مثل : «وفاء ، ونجاح ، ورضا، وإنعام ، وإيمان ، وجهاد ، وسلامة ، وعِزّ ، وإقبال ، وبركة ، وهمْس، وهديل ... إلخ ».

* * *

١٥ ـ ونصل إلى الاعتراض الخامس عشر فنجد أنفسنا لا نزال مع الآية السابقة ، حيث يزعم صويحبنا أنه كان يجب أن يقال : «ولكن البِرّ من آمن بالله واليوم الآخر ... وآتى المالَ على حُبِّه ذوى القربى ... وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرون في البأساء والضرّاء وحين البأس » بدلا من «والصابرين» ، لأن «الصابرين» عنده معطوفة على «الموفون بعهدهم» ، والمعطوف على المرفوع لا بد أن يكون مرفوعا مثله (ص١٠٩). وقد تقدم في الرد على الشبهة التاسعة تفنيد مثل هذا السخف ، إذ قلنا إن النصب في مثل هذه الحالة يدل على مزيد من الاهتمام بصاحب الاسم المنصوب على سبيل المدح ، ولا داعى لإيراد التفاصيل التي أوردناها هناك .

* * *

١٦ ـ وفى قوله تعالى فى الآية ٥٩ من سورة «آل عمران» : «إِنَّ مَثَلَ عيسى عند الله كمَثَلِ آدم. خَلَقَه من تراب ثم قال له : كن ، فيكون» يعترض عبد القاضى مؤكدا أنه «كان يجب أن يُعْتَبر المقام الذى يقتضى صيغة الماضى لا المضارع فيقول : قال له : كن ، فكان» (ص ١١٠). وواضح أنه ، لجهله وحرمانه من المقدرة على تذوق الأساليب الأدبية الرائعة وما تتميز به من مفاجأة القارئ أو السامع فى كثير من الأحيان بما يهزّه ويوقظه ويخرجه من النزعة الآلية التى تستولى علينا من كثرة ما نرى الأمور تجرى على وتيرتها المعهودة ، يظن أنه لا يوجد إلا طريقة واحدة فى التعبير عن كل معنى. وهذه طفولية لغوية وأدبية ، وإلا فكيف فاته أن عبارة «كن، فيكون» ، وإن استُعْمِلت هنا فى الكلام عن خلق آدم فى الماضى ، فإنها تمثل مبدأً عامًا لا يتقيد بزمن ، فأُبْقِيَتْ من ثَمّ على حالها التى وردت بها فى المواضع الأخرى من القرآن الكريم ، وكلها تقريبا مما لا يتقيد بزمن دون زمن[1]. فهذه نكتة بلاغية رهيفة لا يقدر على التقاطها بُلَداء الذهن والذوق. ثم هناك نكتة بلاغية أخرى مثلها رهافةً بحيث لا يستطيع سَمِيك العقل والوجدان أن يتنبه إليها ، ألا وهى أن

(١) وهذه المواضع هى : البقرة / ١١٧ ، وآل عمران / ٤٧ ، والنحل / ٤٠ ، ومريم / ٣٥ ، ويس / ٨٢ ، وغافر / ٦٨ .

الحديث فى الآية ، وإن كان عن آدم أبى البشر ، فإنه يصدق كذلك على أبناء آدم فى المستقبل ، فاستخدم القرآن لهذا السبب صيغة المضارعة التى تدل على الاستمرار والديمومة[1]. ترى أفهمَ الجهول أم نعيد الكلام من جديد ؟ وهناك نصيحةٌ تقول : لا تُلْقُوا بالدرر أمام الخنازير ! وما إلى الخنازير قَصَدْنا بكتابة ردنا هذا ، ولكننا وضعناه لطيِّبى النية ممن توسوس الثعالب فى آذانهم ، وذلك كى يأخذوا حذرهم فلا ينخدعوا بملاسة الجلد عن نار الحقد المستعرة فى قلوب هذه الثعالب الفتاكة. ومن أمثلة عطف المضارع على الماضى فى الشعر الجاهلى قول تأبط شرًا يصف عراكه مع الغول :

بأنّى قد لقِيتُ الغول تسعى ... بسُهْبٍ كالصحيفة صحصحانِ
فآخذُه فأضربها فخرّتْ ... صريعًا لليدين وللجِرانِ

ثم نختم هذا الدرس بسَوْق هذين الشاهدين المشابهين من

---

(١) بعد كتابتى هذا الكلام بمدة كنت أقلب بالمصادفة فى كتاب المستشرق الفرنسى بلاشير « Grammaire de l'Arabe Classique » فوجدته يقول فى تفسير استعمال المضارع فى هذه الآية ما ترجمته : « قال (لآدم) : كن فيكون » ، أى فبدأ يكون ويستمر فى الحياة . ذلك أن استخدام الماضى هنا إنما يفترض واقعة حدثت وانتهى الأمر دون أن تكون هناك فكرة الاستمرارية » (G. P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1952 , P. 254).

الكتاب المقدس عند الضالّ التعيس : جاء فى سفر « نبوءة أَشَعْيَا » (٦ / ٩ ـ ١٠) عن رب العزة: «قال : انطلِقْ وقل لهذا الشعب (أى بنى إسرائيل) : اسمعوا سماعا ولا تفهموا ، وانظروا نظراً ولا تعرفوا . غلِّظْ قلب هذا الشعب وثَقِّلْ أذنيه وأغمضْ عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه فيرجع فيُشْفَى». ويرى شراح الكتاب المقدس أن فى الكلام هنا مجازا حيث تكرر استخدام صيغة الأمر فى الكلام على حين أن المقصود هو المضارع الدال على المستقبل ، بمعنى أن بنى إسرائيل سيسمعون ولكن لن يفهموا ، وسينظرون ولكن لن يَرَوْا . وقد حوّل يوحنا فى إنجيله (١٢/٣٩ ـ ٤٠) الزمن فى هذه الأفعال إلى الماضى وجعل الفاعل هو الله تعالى : « لأن أشعيا قال أيضًا : أعمى (أى الله) عيونَهم وقسّى قلوبَهم لئلا يبصروا بعيونهم ولا يفهموا بقلوبهم». ومثل ذلك ما جاء فى مفتتح الفصل الثانى عشر من سفر «الأحبار» : «أية امرأة حَبَلَتْ فولدت ذكرا فلْتكُنْ نجسة سبعة أيام ... فإن ولدت أنثى فلتكن نجسة أسبوعين» ، حيث استُخْدِمت «لام الأمر» مع المضارع بدلا من استخدام المضارع المجرد من اللام رغم أن الكلام هنا خبر لا طلب .

* * *

١٧ ـ وفى قوله تعالى فى الآية ١٥ من «يوسف» عن إخوته عليه السلام وعزمهم على التخلص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم : « فلما ذهبوا به وأَجْمَعوا أن يجعلوه فى غَيابة الجُبِّ وأوحينا إليه : لَتُنَبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » يؤكد الأخرق أن فى الجملة خطأً لأنها تخلو من جواب «لولا» ، وأنه «لو حُذفت الواو التى قبل «أوحينا» لاستقام المعنى» (ص ١١٠). ولا بد من التنبيه أولا إلى أن القرآن يَكْثُر فيه الحذف ، فهو سمة من سمات لغته أفاض فيها علماء القرآن والنحو والبلاغة ، وهذا الحذف موجود أيضًا بكثرة فى الشعر العربى القديم أيام كان العرب يستعملون لغتهم بتلقائية الواثق القابض على عنانها يصرِّفها حسبما تَشاء مراميه البلاغية . فهذه الآية إذن ليست بِدْعًا فى القرآن ، وهذا إن قلنا بالحذف ، وهو مجرد رأى من الآراء التى وُجِّهَتْ بها الآية . والحذف هنا ، عند من يقول به ، غَرَضُه التشويق وإثارة تطلع القارئ للتفكير فى المراد من الآية . وما زلنا حتى الآن نقول فى أحاديثنا مثلا : « آه لـمَّا جاء أبوه ورأى ما صنع ! » ، فهل سمع أحدنا قطّ من يعترض على مثل هذا الأسلوب ويتهمه بالنقص؟ ومن شواهد هذا الاستعمال فى الشعر العربى القديم قول امرئ القيس عن إحدى مغامراته العاطفية مع حبيبته :

فلما أجزّنا ساحة الحىّ وانتحى ... بنا بطن خبْتٍ ذى حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

حيث انتهت جملة «لـمّا» مع نهاية البيت دون أن يظهر لها جواب. وبهذا الحذف يريد امرؤ القيس إثارة خيال السامع لينطلق فيتصور على هواه كل ما يمكن أن يكون قد وقع بينه وبين حبيبته .

وفى الكتاب المقدس عند العبد الفاضى نقرأ مثلا : «وندم بنو إسرائيل على بنيامين إخوتهم»[١] ، و «بنيامين» (المبدل منه) فَرْد ، والبدل «إخوتهم» جَمْع ، فهل نملأ الدنيا صراخا بأن هذا خطأ كما فعل جاهلنا ؟ إننا نقول إن ههنا حذفا ، وتقدير الكلام : «وندم بنو إسرائيل على بنى بنيامين». ومن الحذف أيضًا فى ذلك الكتاب : «إنى مررت بحقل الكسلان وبكرْم الإنسان الفاقد اللُّبّ ، فإذا الشوك قد علاه ، والعضاه غطّى وجهه ، وجدار حجارته قد انهدم . فنظرتُ فوعيتُ فى قلبى ، ورأيت فاستفدت تأديبا . **قليل من الوسن . قليل من الرقاد . طىّ اليدين قليلا للرقاد**»[٢]، فهذه ثلاث جمل غير كاملة. أفنقول إنها خطأ ؟ أبدا . وتقدير العبارة هو : «يكفى جدا قليل من الوسن» أو « قليل من الوسن كافٍ جدًّا»... وهكذا . وفى ذلك الكتاب أيضًا نقرأ العبارة التالية : «ألم يعلم جميع فاعلى الإثم

---

(١) قضاة / ٢١ / ٦ .

(٢) أمثال / ٢٤ / ٣٠ ـ ٣٣ .

الذين يأكلون شعبى أكْلَ الخبز ولم يَدْعوا الرب ؟ هناك جزعوا جزعا حيث ليس جزع لأن الله فى جيل الصدّيقين»[1]. وعبثا نحاول أن نجد فى النص مفعول «ألم يعلم...؟». وقد تركه المتحدث عمدا ليثير خيال السامعين ويهوّل لهم ما يريد تحذيرهم منه . والمراد مثلا : «ألم يعلموا ما ينتظرهم من جزع ورعب وعقاب لا يُرَدّ؟».

على أن هناك من يقول إنه لا حذف فى الآية القرآنية وإن جواب «لـمّا» موجود فى قوله سبحانه : «قالوا : يا أبانا ...» بعدها بآيتين على النحو التالى : «فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجُبّ ، وأوحينا إليه : لتنبئّنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاؤوا أباهم عِشاءً يبكون * قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا نَسْتَبِقُ وتركْنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ...». وثَمّ توجيهات أخرى يُرْجَع إليها فى كتب التفسير وإعراب القرآن وما إليها .

* * *

١٨ ـ ويمضى صويحبنا الأحمق فى لجاجاته قائلا إن التركيب فى الآية التاسعة من سورة «الفتح» يؤدى إلى اضطراب المعنى .

---

(١) مزامير / ١٣ / ٤ ـ ٥ .

وها نحن أولاء نورد أولاً الآية المذكورة والتى قبلها ليتابعنا القارئ فيما نقول . قال تعالى : «إنا أرسلناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلا» . وشبهة الأحمق تقول إن هناك «اضطرابا فى المعنى بسبب الالتفات من خطاب محمد إلى خطاب غيره ، ولأن الضمير فى «تعزّروه وتوقّروه» عائد على الرسول المذكور آخراً ، وفى قوله : «تسبّحوه» عائد على اسم الجلالة المذكور أولا . هذا ما يقتضيه المعنى ، وليس فى اللفظ ما يعيّنه تعيينا يزيل اللّبس . فإن كان القول : «تعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلا» عائدا على الرسول يكون كفرا لأن التسبيح لله فقط ، وإن كان القول: «تعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلا» عائدا على الله يكون كفرا لأنه تعالى لا يحتاج لمن يعزّره ويقوّيه » (ص١١٠) . وردّاً على هذا السخف الذى لُقّنه هذا الببغاء تلقينا فأداه كما قيل له دون أن يفقه منه شيئا نقول : أما الالتفات من « كاف الخطاب » لـ «واو» المخاطبين فلست أدرى ماذا فيه . إن رب العزة المتعال يخاطب رسوله قائلا : «إنا أرسلناك (يا رسول اله) شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا (أنت وسائر العباد) بالله ورسوله ... إلخ» ، فماذا فى هذا الكلام مما يصعب فهمه ؟ بُؤْسَ للعقول السّنِخة والأفواه المنتنة !

وأما المشكلة التى يريد أن يخلقها خلقا فى قوله عز من قائل : «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلا» فلا وجود لها إلا فى ذهنه المخبول . بالله لم لا يكون التعزير والتوقير والتسبيح جميعا لله عزّ وجل ؟ ما الذى فى ذلك مما لا يناسبه سبحانه ويُوقِع القائل به فى الكفر ؟ إن الله جلّت قدرته ليس فى حاجة فعلا إلى أية مساعدة أو عون من أحد ، بَيْدَ أن الكلام فى الآية إنما هو على المجاز مثل قوله فى الآية السابعة من سورة «محمد» : «يا أيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصُرْكم ويثبِّتْ أقدامكم» وقوله فى الآية ١٧ من «التغابن» : «إن تُقْرِضوا الله قرضا حسنا يضاعفْه لكم ويغفر لكم» وغير ذلك . ومغزى المجاز فى الآية التى بين أيدينا هو زيادة الحضّ على الاستمساك بعروة الإسلام ونصرة مبادئه والجهاد دفاعا عنه والتضحية فى سبيله بالنفس والنفيس ، وهو أسلوب من الكلام يراد به استفزاز أقصى طاقات المخاطب واستنفار كل ما تجيش به نفسه من عزم ، إذ متى ما قيل للمؤمن إنك ، بعملك كيت وكيت ، إنما تنصر الله نفسه ، فإنه يهبّ بجمع طاقته وعزيمته لتحقيق ما تطلبه منه . كذلك فهذا الأسلوب يُشْعِر المؤمن بأنه شديد القرب من ربه، ويجعل حبل المودة بينه وبين مولاه قويا متينا . ولقد أثمر هذا

الأسلوب ثمرته فرأينا المسلمين يسترخصون كل شيء في سبيل نصرة دينهم ورسوله ، بخلاف غيرهم ممن أسلموا نبيهم وفرّوا من حوله فأخذ يصرخ (كما جاء في كتبهم التي لا نصدقها) مستنجدا بالسماء على غير جدوى ! وفي هذا بلاغ ، ولا داعي للإفاضة ! وأما بالنسبة للتوقير فنستشهد عليه بما جاء في الآية ١٣ من سورة «نوح» خطابًا من هذا النبي الكريم لمشركي قومه : «ما لكم لا ترجون لله وقارا؟» . لا مشكلة إذن في الآية كما هو واضح ، بل المشكلة في الذهن المأفون !

* * *

١٩ ـ وبالمثل يخلق أحمقنا برعونته مشكلة أخرى لا وجود لها إلا في عقله ، إذ يقول إن « سلاسل » و « قوارير » في الآيتين ٤ ، ١٥ من «الإنسان» : «إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالا وسعيرا» ، «ويطاف عليهم بآنية من فضة ، وأكواب كانت قواريرًا» قد نوِّنتا رغم أنهما ممنوعتان من الصرف أي أن في الآيتين خطأ نحويا (ص١١٠ ـ ١١١) . وصواب القول إن هاتين الكلمتين في المصحف الذي بين أيدينا غير منونتين . كل ما في الأمر أنهما كتبتا بالألف ، ومعروف أن إملاء المصحف يختلف عن إملائنا الحالي بعض الاختلاف .

ولكن حتى لو نوّنتا ، وهناك قراءة تنونهما فعلا ، فليس فى تنوينهما من بأس ، إذ من العرب قديما من كان ينوّن الأسماء كلها ما عدا «أفعل التفضيل». صحيح أننا الآن لا ننوّن أشياء كثيرة من بينها ما كان من الجمع على وزن «مَفاعِل» و «مفاعيل» ، لكن هذا لا يعدو أن يكون جانبا واحدا من المسألة ، أما الجانب الآخر فهو أن المنع من الصرف لم يكن لغة كل العرب بل غالبيتهم فقط . ونحن نميل حاليا إلى التزام القواعد العامة وترك اللهجات القبلية التى لا تجرى مع هذه القواعد . إلا أن هذا شىء ، والمسارعة بجهل إلى تخطئة أصحاب اللغة الأصلاء الذين منهم أخذنا قواعدنا وإياهم نحتذى فشىء آخر . فليكن الجهلاء على بيّنة من هذا حتى لا يَضِلّوا ويُضِلّوا ! والشواهد الشعرية على صَرْف ما تعوّدنا على منعه من الصرف كثيرة فى النصوص القديمة ، والأمر فيه ليس أمر ضرورة شعرية فقط كما قد يُظَنّ ، بل هو لغة من لغات العرب كالمنع من الصرف سواء بسواء .

* * *

٢٠ ـ هذا ، وقد سبق أن وضّحنا ، فى الرد على الشبهة الثالثة ، السرّ فى تذكير كلمة «قريب» فى قوله تعالى : «إن رحمة الله قريب

من المحسنين » بما يغنينا عن إعادة القول هنا رداً على الشبهة العشرين التى تورد آية أخرى توجد فيها الظاهرة اللغوية نفسها هى الآية ١٧ من «الشورى»، ونصها : «وما يدريك ؟ لعل الساعة قريب».

* * *

٢١ ـ ويأخذ المتنطع الفارغ العقل على قوله جلّ من قائل فى الآية ١٩٦ من سورة «البقرة» عمّن تمتّع بالعمرة إلى الحج ولم يتيسر له شراء هَدْى : «فمن لم يجد فصيامُ ثلاثة أيامٍ فى الحج وسبعةٍ إذا رجعتم تلك عشرةٌ كاملة» أن كلمة «كاملة» لا لزوم لها لأنها توضح ما لا يحتاج إلى توضيح ، وإلا فمن ذا الذى يظن العشرة تسعة؟ (ص١١١). وهذا تنطع بلغ الغاية فى السُّخْف والتفاهة . إن المتنطع التافه لا يعجبه العجب : فإذا رأى حذفا قال : لماذا كان هناك حذف؟ وإذا رأى توكيدا قال : لا داعى له ... وهكذا . وأذكر أنى كنت قبل نحو عشرين سنة أسمع أغنية نجاة الصغيرة التى تسأل فيها فتاةٌ حبيبها عما جعله يتنبه إلى حبّها له : أهو قلبه أحسّ بها فجاوبها حبًا بحب ؟ أم كثرة الشوق الذى أطلّ من عينيها ؟ أم ... ؟ أم ...؟ أم الحنان الذى كان فى « سلام يدها اليمين »[1]؟ فتساءلتُ

(١) أى فى مصافحتها إياه يدها اليمنى .

ضاحكا : وهل هناك «سلام» بغير اليد اليمنى حتى تحتاج الفتاة إلى تأكيد ذلك؟ ثم عدتُ أنظر فى العبارة من جديد فوجدتُ الحسن كله فى هذا التحديد الذى قد يبدو للعجلين أنه زيادة لا ضرورة لها ، لأن هذه الكلمة قد حوّلت « السلام » من معنًى مجردٍ إلى واقعةٍ حية يبصرها الذهن ويرى فيها اليد مشتبكة باليد تصافحها وتبثها الحنان . وكذلك الحال هنا ، فقد تحولت العبارة بكلمة «كاملة» من مسألة حسابية مجردة إلى واقعة حية . ولا ننس أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا من علوم الحساب فى شىء ، فكان لا بد من التأكيد ليعرفوا أن رقم العشرة هنا رقم كامل لا عدد تقريبى ، وهذا كقول النابغة الذبيانى مثلا :

قالت: ألا ليْتَمَا هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه ، فَقَدِ

فحسَّبوه فألْفَوْه كما حَسَبَتْ ... تسعا وتسعين لم تنقص ولَمْ تزدِ

وقوله أيضاً :

أسائل عن سُعْدَى وقد مرّ بعدنا ... على عرصات الدار سبعٌ كواملُ

وحتى فى العصر العباسى نجد الجاحظ مثلا يقول إن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يقضون فى تنقيح قصيدتهم وصقلها «حَوْلاً كريتا» ، أى عاما كاملا لا ينقص يوما واحدا . وكذلك نحن الآن بعد كل هذا التقدم الهائل فى الحساب والرياضيات لا يزال الواحد منا يقول

لمدينه مثلا : « أريد منك ألف الجنيه التى اقترضتَها منى كاملةً لا تنقص مليما واحدا » أو « لا بد أن تدفع الخمسمائة جنيه والسبعة عشر قرشا التى اشتريت بها بضاعة منى ، والسبعة عشر قرشا قبل الخمسمائة جنيه » . وبالمثل نقول : «رأيته بعينى ، وسمعته بأذنى» رغم أن الرؤية لا تكون إلا بالعين ، ولا السَّمْع إلا بالأذن . وقد فات الجاهلَ الفَدْمَ أن الكلام لا يمكن أن يجرى دائمًا على وتيرة آلية واحدة فى كل الأحوال والسياقات ، بل لا بد من نتوءات ومفاجآت تُنْعِشه وتجعله جديدا أخضر ، وإلا فيستطيع أى متنطع أن يعترض مثلا على ما جاء فى الفقرة ٢٣ من الفصل التاسع والعشرين من سفر «الخروج» ، إذ يأمر الله هارون أن يأخذ إلى المذبح «رغيفا واحدا من الخبز وجَرْدَقةً واحدة من الخبز» ، ويتساءل : «ولم وُصِف كل من الرغيف والجردقة بأنه واحد ، والرغيف لا يكون إلا رغيفا واحدا لا نصف رغيف ولا رغيفين ولا ثلاثة ، ومثله الجردقة ؟ أليس هذا تزيدا فى الكلام لا جدوى منه؟» . هذا ما يقوله المتنطع الأملط العقل مثل «عبد الفاضى» ، أما العقلاء فإنهم يحترمون أنفسهم ولا يعترضون . ومثل ذلك ما جاء فى الفقرة الأخيرة من الفصل السادس عشر من سفر « الأحبار » من قول كاتب السفر : «مرة واحدة فى السَّنة» ، وكذلك قوله فى آخر الفصل العشرين عن العرّاف : «فلْيُقتَل

قتلا بالحجارة» ، الذى يمكن أن يتحامق فيه أى جهول فيقول : «وهل يمكن أن يُقْتَلَ الإنسان أى شيء آخر غير القتل ؟ فلماذا قيل إذن : «فَلْيُقْتَلْ قتلا» ولم يُقَلْ : «فَلْيُقْتَل» فقط؟ وبالمثل يستطيع أى بليد جاهل أن يتساءل عن السرّ فى جمع السُّبوت فى الأعوام السبعة فى آخرِ العبارة التالية بعد أن عُرِف أن المدة هى سبع سنين فى كل سنة منها سبعة سبوت : «واحسُبْ لك سبعة سبوت من السنين سبع سنين سبع مرات فتكون لك أيام السبوت السبعة تسعا وأربعين سنة»[1] قائلا: «وهل يكون حاصل ضرب ٧ فى ٧ إلا ٤٩ ؟». ثم ما هذه العشكلة فى قوله : «سبعة سبوت من السنين سبع سنين سبع مرات» التى توحى بأن مؤلف الكتاب كتبه وهو سكران أو مرهق يريد أن ينام؟ ومثل ذلك أيضًا ما جاء فى الآية ٢٤ من الفصل الثامن من سفر «يشوع» : «وسقطوا جميعهم بحدّ السيف عن آخرهم» مع أنه كان يكفى ، بناء على رأى المتنطع الجهول ، أن يقال : «وسقطوا بحد السيف». ومثله قول مؤلف «نبوءة زكريا» على لسان الله سبحانه: «فى اليوم الرابعَ والعشرين من الشهر الحادى عشر الذى هو شباط»[2] ، إذ يَقْدِر أىُّ نَزِقٍ من طينة المدعوّ عبد الفاضى أن يقول

---

(١) أحبار / ٢٥ / ٨ .

(٢) نبوءة زكريا / ١ / ٧ .

مستنكرا : «وهل يمكن أن يكون الشهر الحادى عشر شيئا آخر غير شباط؟» . ومثله أيضًا عبارة «مدة يوم كامل»[1] ، حيث وُصِف «اليوم» بأنه «كامل» ، ومعروف أن «اليوم» لا يمكن أن يكون إلا يوما كاملا لا ثلاثة أرباع يوم أو أربعة أخماسه أو خمسة أسداسه مثلا؟ ومثله عبارة : «ومِنْ كلّ حيٍّ من كل ذى جسد اثنين من كلّ» حيث كرر عبارة «من كل» ثلاث مرات دون داع .

* * *

٢٢ ـ ومن « عشرة كاملة » إلى لغة « أكلونى البراغيث » كما يسميها النحاة . ذلك أن الجاهل المتغشمر يظن بعقله الضيق أن هناك غلطة نحوية فى قوله تعالى فى الآية ٣ من «الأنبياء» : «وأَسَرُّوا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشرٌ مثلكم؟» ، إذ يزعم أن الصواب يقتضى حذف «الواو» من «أسرّوا» فيكون الكلام : «وأسرّ النجوى الذين ظلموا» (ص١١١) . وهذا اعتراض يدل على تفاهة عقله ، ذلك أن الآية تخلو تماما مما يمكن أن يؤخذ عليها ، فالتركيب تركيب عربى سليم مائة فى المائة ، ولو كان فيه أدنى شىء ما سكت عليه العرب . أما إذا أردنا توجيهه فنحن بالخيار : فإما أن

يكون تقدير الكلام : «وأسرّوا النجوى، (أعنى) الذين ظلموا : هل هذا إلا بشرٌ مثلكم؟» ، وإما أن يبقى الكلام على حاله دون تقدير ، وتكون «واو الجماعة» فى «أسرّوا» حرفا يدل على جمع الذكور (لا فاعلا) كما تدل التاء فى «أقبلتْ فاطمة» على المفردة المؤنثة ، أو تكون «واو الجماعة» هى الفاعل ، و «الذين ظلموا» بدلا منها .

وعلى أية حال فقد وردت شواهد على هذا التركيب فى الشعر العربى القديم . يقول عروة بن الورد :

وأحقرهم وأهونهم عليه ... وإن كانا له نَسَبٌ وخِيرُ

ويقول أُحيّحة بن الجلاح :

يلومونني فى اشتراء النخيـ ... ـل أهلى ، فكلهم يَعْذِلُ

ويقول عمرو بن ملقط :

أُلْفِيَتا عيناك عند القفا ... أولى فأولى لك ذا واقيه

ويقول محمد بن عبد الله العتبى :

رأين الغوانى الشيْبَ لاح بعارضى ... فأعْرَضْن عنى بالخدود النواضِرِ

ومثله الشاهد التالى :

ألا يا اسلما يا دِمْنَتَىْ أم مالكٍ ... ولا يَسْلَما بَعْدَيْكما طَلَلانِ

وكذلك هذا الشاهد :

نصروك قومى فاعتززتَ بنصرهم ولو انهم خـذلوك كنتَ ذليـلا

ثم هذا الشاهد :

نُسِيَا حـاتمٌ وأوسٌ لَدُن فـا ضَتْ عطاياك يا ابن عبد العزيز

ثم هذا الشاهد أيضاً :

فـأدركْنه خـالاته فَـخَـذَلْنه ألا إن عرق السوء لا بدَّ مُدْرِكُ

ثم هذا الشاهد لأبى فراس الحمدانى :

نتج الربيع مـحـاسنًا ألقَحْنَه غُرُّ السحائبْ

ثم هذا الشاهد لأحد شعراء « اليتيمة » :

إلى أن رأيتُ النجم وهو مغرِّبٌ وأقبلْنَ راياتُ الصباح من

* * *

٢٣ ـ والأخر يعيب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى فى الآية ٢١ من «يونس» : «هو الذى يسيِّركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفُلْك وجَرَيْن بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحيط بهم دَعَوُا الله مخلصين له الدين : ...» ، قائلا إن الالتفات قد حدث قبل

تمام المعنى ، « والأصح أن يستمر على خطاب المخاطب » (ص١١١) . وهذا يعنى أن ذلك الجاهل يقيم من نفسه معيارا للصحة اللغوية والذوق البلاغى الرهيف ، وهو الذى رأيناه يخطئ الأخطاء الفاحشة فى أوّليات النحو . أليس ذلك من دواهى الزمن ؟ من أين لهذا الجاهل (الذى لو كان الأمر بيدى لعهدت به إلى مدرس خصوصى وأوصيته أن يقوّم عوجه وبلادته بالخيزرانة) من أين له أن الالتفات لا ينبغى أن يُسْتَعْمل إلا إذا انتهت الجملة وبدأت جملة أخرى ؟ لذلك لن أرد على هذا السخف وسأكتفى بإظهار المغزى البلاغى والنفسى لهذا الالتفات . والواقع أن فى هذا الأسلوب تعبيرا عن الإعراض عن المخاطبين فى الآية وإظهارا للزراية والإنكار عليهم ، فما أكثر ما يولّى الواحد منا صَفْحَهُ أو ظَهْرَه لمن لا يريد أن يستمر فى الحديث معه احتقارا له أو سخطا عليه وما إلى ذلك ، فهذا من ذاك .

وهناك شواهد على ذلك الأسلوب من الكتاب المقدس عند صويحبنا ، مثل قول إخوة يوسف لفرعون : « جئنا لننزل بأرضك ، إذ ليس لعبيدك مرعًى من اشتداد الجوع فى أرض كنعان ، فلْيقِمْ عبيدك بأرض جاسان »[1] ، حيث تم الالتفات من جماعة المتكلمين

---

(١) تكوين / ٤٧ / ٤ .

إلى جماعة الغائبين قبل تمام المعنى . ومثله قول بنى إسرائيل فى ابتهالهم لربهم : « قد خطئنا إليك وتركنا إلهنا وعَبَدْنا البعليم»[1]، حيث تحول الكلام من المخاطب فى « إليك » إلى الغائب فى الاسم الظاهر « إلهنا » . ومثله قول يهوديت : «الربّ يمحق الحروب ... جعل معسكره فى وسط شعبه لينقذنا من أيدى جميع أعدائنا»[2]، حيث انتقل الحديث من الغائب المفرد فى «شعبه» إلى جماعة المتكلمين عقب ذلك مباشرة فى «لينقذنا... أعدائنا»، وذلك قبل تمام الجملة. ومثله أيضًا هذا القول المنسوب للسيد المسيح عليه السلام يخاطب تلاميذه : «إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى جيل التجديد . متى جلس ابن البشر على كرسىّ مجده تجلسون أنتم أيضًا على اثنى عشر كرسيا وتدينون أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر»[3]، حيث تغير الاتجاه من ضمير المتكلم فى «تبعتمونى» إلى الغيبة فى قوله : «ابن البشر». ومثله كذلك قول بولس إلى أهل أفسس : «حين كنا أمواتا بالزلات أحيانَا مع المسيح فإنكم بالنعمة مخلّصون. وأقامنا معه وأجلسنا معه فى السماويات فى المسيح

(١) قضاة / ١٠ / ١٠ .

(٢) يهوديت / ١٦ / ٣ ـ ٤ .

(٣) متى / ١٩ / ٢٨ .

يسوع»[1] ، حيث تحوّل الضمير من جماعة المتكلمين فى « كُنّا » إلى جماعة المخاطبين فى « إنكم » ثم عاد ثانية إلى جماعة المتكلمين، وذلك كله قبل أن يتم المعنى ، فماذا يقول العبد الفاضى فى هذا ؟ وهناك أمثلة أخرى أكثر من الهم على القلب !

* * *

٢٤ ـ كذلك يستغرب جاهلنا أن القرآن لم يقل فى الآية ٦٢ من سورة « التوبة » : « واللهُ ورسولهُ أحقّ أن يُرْضوهما » بدلا من «والله ورسوله أحقّ أن يُرْضُوه» ، فيثنّىَ الضمير العائد على الاثنين : «الله ورسوله» بدلا من إفراده . وهو يعدّ ذلك خطأ (ص١١١) . والحق أن هذا أسلوب عربى صميم ليس فيه شيء إلا عند الأفهام الخربة والأذواق العطنة ، وذلك كقول قيس بن الخطيم :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ، والرأى مُخْتَلِفُ

وقول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ـود ما لم يُعاصَ كان جنونا

وأُضيفُ إلى ذلك أن هذا الأسلوب لم يقتصر وروده فى القرآن الكريم على هذه الآية وحدها بل يجده القارئ أيضًا فى قوله تعالى مثلا فى

(١) رسالة القديس بطرس إلى أهل أفسس / ٢ / ٥ ـ ٦ .

الآية ٣٤ من «التوبة» عن الأحبار والرهبان : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرّهم بعذاب أليم» ، وقوله جلّتْ قدرته فى الآية ١١ من سورة «الجمعة» مخاطبا رسوله عليه السلام بشأن بعض المسلمين ممن تركوا خطبة الجمعة عند ورود قافلة التجارة التى كانوا ينتظرونها : « وإذا رأوْا تجارة أو لَهْواً انفضّوا إليها» . ومغزى إفراد الضمير فى الآية التى اعترض عليها الجاهل هو أن رضا الرسول متضمَّن فى رضا الله لأنه عليه السلام إنما ينطق عن وحى السماء . وفى هذا تنبيه إلى أن رضاه صلى الله عليه وسلم من الأهمية بمكان ، فكأن الذى يعصيه ويُغْضِبه قد عصى الله ذاته وأغضبه .

* * *

٢٥ ـ ونأتى إلى آخر الشُّبَه الموجودة فى فصل الكتاب الخامس المسمّى «أسئلة لغوية» ، وهى تتعلق بجمع كلمة «قلب» فى قوله عز شأنه يخاطب عائشة وحفصة رضى الله عنهما وأرضاهما حينما زادت غيرتهما على رسول الله إلى الحد الذى ضايقه : «إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما» ، إذ يتساءل هذا العبقرى: «لماذا لم يقل : «صغا قلباكما» بدل « صغت قلوبكما» ، إذ إنه ليس للاثنتين أكثر من قلبين؟ » (ص١١٢). ما كل هذه العبقرية؟ لقد اكتشف نيافته ما

لم يكتشفه أحد من الأولين والآخرين فعرف أن للإنسان قلبا واحدا لا قلبين أو أكثر . وأنا أحيّيه على هذا الاكتشاف وأنبّه من يقولون : «هذه الفتاة عيونها جميلة ، وخدودها أسيلة ، وأثداؤها كالرّمّان، وأردافها كالكثبان، وسيقانها لا أدرى ماذا»[1] إلى أن عليهم من الآن فصاعدا ألا يستخدموا صيغة الجمع هنا بل يستعملوا بدلا منها صيغة المثنى . خيبة الله على كل تافه جهول ! ترى ماذا نفعل مع الشعراء والأدباء ، وهم منذ خلقهم الله يميلون فى كثير من الأحيان إلى التوسع فى مثل هذه التعبيرات ؟ يقول الأعشى مثلا :

إذَا تقُومُ يضُوع المِسْك أصْوِرَةً   والزنْبق الورد من أردانها شَمِلُ

فجمع « الأردان » مع أن لها رُدْنين (أى كُمّين) اثنين فقط . ويقول قيس بن الخطيم :

كأن لَبّاتها تضمّنها   هَزْلَى جَرَادٍ اجوازه جُلُفُ

واللَّبّة : أوسط الصدر والمنحر ، وللمرأة لبة واحدة لا لبّات . ويقول السُّلَيْك بن السُّلَكة :

كأن مجامع الأرداف منها   نَقًى درجتْ عليه الريحُ هارا

---

(١) وأحيانا ما يحدث العكس وتُسْتَخْدَم صيغة المفرد فنقول : «خدّها أسيل، وطرْفها كحيل، وردفها ثقيل».

وللمرأة ردفان اثنان ، لكن الشاعر استخدم صيغة الجمع . ويقول بشامة بن الغدير فى ناقته :

كـــأن يديهـــا إذا أَرْقَلَتْ وقد جُرْنَ ثم اهتدين السبيلا

يدا غـــانم خَـــرَّ فى غـــمـــرةٍ قـــد ادركـــه الموت إلا قليـــلا

حيث جعل الضمير العائد على « اليدين » ضمير جمع ، وهو نون النسوة . وعلى العكس من ذلك يقول امرؤ القيس : «ففاضت دموع العين منى صبابةً» رغم أنه بكى بعـينيـه الاثنتين لا بعين واحـدة . ويقـول بشر بن أبى خازم فى حبيبته إنهـا «ريّا المعصم» مع أن لهـا معصـمين اثنين لا معصـمـا واحدا . وبالمثل يصف عمرو بن كلثوم امرأة فيقول إنها « تُريك ... ثَدْياً مثل حُقّ العاج» بدلا من «ثديين» . كما يقول بشامة إن من ينظر إلى ناقته يرى لها «يداً سُرُحًا» بصيغة المفرد ... إلخ ، وهو كثير . ثم ماذا نقول لتوفيق الحكيم ، وقد ألف مسرحية عنوانها « الأيدى الناعمة » تتحدث عن رجل أرستقراطى لا يحب أن يشتغل بيديه كبقية خلق اللـه ، لكـن الحكيـم جعـل له « أيديا » لا « يدين » ؟ وماذا نقول أيضًا لمحمود تيمور ، الذى سمّى قصة من قصصه : «شفاه غليظة» رغم أنه إنما يقصد شفتى فتاة واحـدة ليس إلا ؟ أنقـول لهـمـا : أخطأت يا توفـيق الحكيم أنت

ومحمود تيمور ، فاذهبا وتوبا على يد الجاهل المتنطع حتى يكتب لكما صَكّ غفران تضمنان به دخول الجنة[1] ؟

إن اللغة يا عبد الفاضى بَحْرها طامٍ ، والعيال من أمثالك عليهم أن يقفوا على الشاطئ بعيدا عن أمواجه حتى لا يجرفهم التيار . ألم تسمع مثلا من يقول إن « الخطيب الفلانى ألقى كلمة مؤثرة أمس » مع أنه قد تلفّظ فى خطبته بآلاف الكلمات ؟ ألم يأتك أحد أقربائك أو أصدقائك ليقترض منك «قرشين» ، وهو فى الواقع يريد ألف جنيه مثلا ، وربما آلافا؟ وفى الإنجليزية كثيرا ما نسمع الصديق يقول لصديقه ، بعد غيابه عنه شهراً مثلا ، إنه لم يره « منذ دهور : for ages » . وهذا كله من باب التوسع اللغوى ، وفيه من البلاغة ما يبهر الألباب . ووجه استعمال «القلوب» فى الآية الكريمة ، حسبما أَتصور ، هو أن القرآن المجيد يريد لأُمَّيِ المؤمنين ، رضى الله عنهما ، أن تَصْغُوَا بكل خلجات قلبيهما إلى الحق ، فكأن الآية قد استعملت «القلوب» بمعنى المشاعر والخواطر .

والآن إلى شواهد من الكتاب المقدس عند العبد الفاضى على هذا

---

(١) أم ترانا ينبغى أن نقول : « وتوبا على يديه حتى يكتب لكما صَكَّىْ غفران تضمنان بهما دخول الجنة » إرضاءً للذهن الغبى ؟

الاستعمال . خذ مثلا : « إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظُمَتْ جداً » ، حيث أُضيفت كلمة «خطيئة» إلى ضمير جمع الذكور ، وكان ينبغي ، بناءً على مزاعم العبد الفاضى ، أن يقال : «وخطاياهما» . وخذ ثانيا : « وهكذا كانوا يجلبون على يدهم لجميع ملوك الحثّيين وملوك أرام »[1] ، وكان يجب ، طبقا لفتوى الأخرق ، أن يقال : « على أيديهم » ، إذ إنهم جماعة لا فرد ، فلهم أيدٍ متعددة لا يد واحدة . وخذ أيضاً : «خدّك كفلقة رمانة»[2] ، والمفروض ، حسبما يقول المتنطع ، أن يقال : «خدّاك كفلقتَيْ رمانة» . وخذ رابعا : «ثدياك مثل العناقيد» ، وكان ينبغى ، بناء على فهمه الكليل ، أن يقال : «ثدياك مثل عنقودين»[3] . ثم خذ خامسا هذا الشاهد الذى يشبه بالضبط ما عابه ذلك البليد : «وجعلوا أسْوِرَةً فى أيديهما وتاج فخر على أرؤسهما»[4] ، إذ قيل : «أرؤسهما» بدل «رأسيهما» . ومثله الشاهد التالى : «إن شاء أحد أن يضربهما تخرج

---

(1) تكوين / ١٨ / ٢٠ .

(2) نشيد الأناشيد / ٤ / ٣ ، و ٦ / ٦ .

(3) نشيد الأناشيد / ٧ / ٨ (مرتين) .

(4) نبوءة حزقيال / ٢٣ / ٤٢ .

النار من أفواههما»[1]. أليس ينبغى بعد هذا أن يخرس كل سمج رذيل ؟

* * *

وهناك شبهات لغوية أخرى أوردها هذا الشقىّ فى مواضع أخرى من كتابه منها قوله : « جاء فى فواتح ٢٩ سورة بالقرآن حروف عاطلة لا يُفْهَم معناها » (يقصد الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور كالبقرة والحِجْر والشورى)، ثم يختم كلامه متسائلا : «إن كانت هذه الحروف لا يعلمها إلا الله كما يقولون ، فما فائدتها لنا؟ إن الله لا يوحى إلا بما يفيد ، فكلام الله بلاغ وبيان وهدى للناس» (ص١٧٥) .

وبادئ ذى بدء أسارع فأقول : أوليس هذا الكون الهائل من صنع الله أيضًا؟ فهل كل شىء فيه مفهوم وواضح للبشر ؟ بل هل كل شىء على الأرض وحدها مفهوم لنا وواضح ؟ بل هل كل شىء فى جسم الإنسان فقط مفهوم وواضح له؟ أما ما يُفْهَم من قوله إن المسلمين يَرَوْنَ ألا سبيل إلى معرفة معنى هذه الحروف فهذا كلام بعض العلماء فقط ، لكن هناك فريقا آخر يرى أن المقصود بها تنبيه

---

(١) رؤيا القديس يوحنا / ١١ / ٥ .

المعاندين إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف وأمثالها ، ومع ذلك لا يستطيع أى بشر أن يأتى بمثله ولا بسورة منه . ونحن إذا ما قرأنا الآية التى تلى هذه الحروف فى كل سورة تقريبا وجدنا أن هذا تفسير جدّ وجيه ، كقوله تعالى مثلا : « ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه » (البقرة) ، « ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (الحِجْر) ، «حم * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم» (فُصِّلَتْ) ، «حم * عسق * كذلك يُوحِي إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم » (الشورى) ، إذ المعنى فى الشاهد الأخير على سبيل المثال أنه من هذه الحروف وأشباهها (وهذا معنى قوله سبحانه : «كذلك») «يُوحِي إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم » . وقِسْ على ذلك السُّوَر الباقية ، وإن لم يأت التعبير فيها جميعا على هذا النحو المباشر بل يتنوع من سورةٍ إلى أخرى . أما السورتان أو الثلاث التى لا يوجد فى أولها مثل هذه الإشارة ، ففى الكلام فيها حذف كالحذف الذى يقابلنا فى كثير من آيات القرآن الكريم جريا على سنة العرب وغير العرب فى لغاتهم .

وللمفسرين آراء أخرى فى تفسير هذه الحروف : منها مثلا أنها أسماء للسور التى تبتدئ بها . ومن هذا أننا ، عندما كنا صغارا نحفظ القرآن فى الكتاب ، كنا نقول مثلا : لقد وصل فلان فى

حفظه للقرآن إلى « الحواميم »، وبعض العلماء يقولون إنها اختصار لأسماء الله ، وبعضهم يقول : بل هى اختصار لصفاته تعالى ، فإذا أخذنا « ألم » مثلا فإن «الألف » تشير إلى « آلاء الله »، و « اللام » إلى « لطفه »و « الميم » إلى « مجده وملكه » ... وهكذا . ومع أن الاتجاه الحديث فى التفسير بوجه عام لا يأخذ بهذا الرأى فإنه ، رغم كل شىء ، أوْجَهُ من ذلك التفسير البهلوانى الذى يدّعى كاتب سفر « نبوءة دانيال » فى العهد القديم أن دانيال قد فسّر به حلم الملك البابلى حين رأى فى منامه كتابة مرسومة ليس لها معنًى هذا نصّها : « منَا منَا تَقلْ وفَرْسين » ، إذ قال له : « منَا أى أحصى الله ملكك وأنهاه . تَقلْ ، أى وُزِنْتَ فى الميزان فوُجِدْتَ ناقصا . فَرِسْ ، أى قُسِمَتْ مملكتك ودُفِعَتَ إلى ماداى وفارس » . ترى أيمكن أن يدخل فى رُوعِ أحد أن يهوديا منفيًا فى مملكة ذلك العاهل يمكن أن يجبهه بهذا الكلام الفظيع ؟ وأدهى من ذلك وأطمّ أن يدّعى كاتب السفر أن الملك ، من إعجابه بهذا التفسير ، قد ألبسه الأرجوان وطوّق عنقه بالذهب ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ، إذ لو صحت الرواية لما كان رد فعل الملك شيئا آخر غير تطيير رقبة ذلك اليهودى بالسيف فى التوّ واللحظة ! على أن المسرحية لـمّا تكتمل فصولا ، إذ تمضى فتقول إن الملك البابلى قد قُتِل فى الليلة ذاتها وانتقل ملكه فعلا إلى الملك

داريوس المادى[1] .

بيد أن الباحثين فى العقود الأخيرة قد توصلوا ، عن طريق استخدام الحاسوب ، إلى مغزى إضافى لورود هذه الحروف فى أوائل السور ، إذ وجدوا أن كل حرف منها هو أكثر الحروف دورانا فى سورته ، أما إذا كان هناك حرفان أو أكثر فإن تردّد أولها يكون أكبر عددا من تردد الثانى ، وهذا أكبر عددا من تردد الثالث ... وهكذا . ولا تزال الأيام المقبلة حُبْلَى بالكثير من هذه الاكتشافات الخاصة بالحروف والأرقام . ومن العلماء من وجد تناغما مذهلاً بين أعداد المرات التى تتكرر فيها الألفاظ المتقابلة كالجنة والنار ، والإنس والجن، وما إلى ذلك مما يجد القارئ شيئا منه فى بحوث المرحوم عبد الرازق نوفل عن الإعجاز العددى فى القرآن الكريم .

ثم إن الذى يقرأ كلام ذلك الأحمق يظن أن كتابهم المقدس قد خلا من الألفاظ التى حيّرت مفسريهم رغم أن أسلوبهم فى تفسير كتبهم يفتقر إلى الانضباط والمنهجية ويتسع لكل شىء ولأى شىء . ولن أذكر للببغاء إلا مثالا واحدا هو كلمة «سِلاه» التى وردت فى «مزامير داود» ٦٣ مرة ، وثلاثا فى «نبوءة حَبَقُّوق» ، والتى اختلف

---

(١) نبوءة دانيال / ٥ / من أوله إلى آخره ، وبخاصة الفقرة ٣٥ وما يليها .

مفسروهم فى شرحها اختلافا شديدا وما زالوا رغم أنهم ، كما قلت، لا يتقيدون بمنهج فى تفسيرهم .

وأخيراً قد يكون من المفيد أن نشير إلى الطريقة التى شكَّل بها هذا اللعينُ الحروفَ المقطعة فى أوائل السُّوَر ، فقد ضبط كل حرف فيها بالفتحة (هكذا : ألَمَ ، طَسَ ، حَمَ * عَسَقَ ... إلخ) مع أن الصواب هو نطق كل منها كما يُنْطَق فى الأبجدية منفردا . فانظر أيها القارئ إلى مدى جهل هذا الأحمق الذى يتصدى لنور الله بنفخة من فمه المنتن يظن أنه يقدر أن يطفئه بها !

* * *

ومن اعتراضاته الحمقاء قوله : « كيف يكون القرآن عربيا مبينا وبه كلمات أعجمية كثيرة من فارسية وأشورية وسريانية وعبرية ويونانية ومصرية وحبشية وغيرها ؟» . وقد أتبع هذا السؤال الصبيانى بقائمة من الألفاظ التى يقال إنها أعجمية (ص١٧٥ ـ ١٧٧) .

وقبل أن أبين ما فى كلام هذا الأحمق من سخفِ جاهلٍ أشير إلى وجهات نظر علمائنا القدامى فى هذه المسألة : فبعضهم يقول إن هذه الألفاظ المنسوبة إلى اللغات الأعجمية هى أيضًا ألفاظ عربية ، وقد وردت هنا وهناك من باب الاتفاق وتوارد الخواطر . وهذا الرأى

يقول به الطبرى والرازى وكثير من العلماء . وقد كنت أستغرب فى البداية هذا الكلام ، إلى أن تنبهت إلى أن كثيرا من هذه الألفاظ منسوب لهذه اللغة السامية أو تلك إلى جانب العربية ، فمن الطبيعى إذن أن تكون موجودة فى لغتنا وفى تلك اللغات فى ذات الوقت لأنها كلها منحدرة من أم واحدة هى اللغة السامية ، مثلما توجد ألفاظ كثيرة مشتركة بين اللغات المتفرعة من اللاتينية . وهناك رأى آخر مُفَاده أن هذه الألفاظ الأعجمية قليلة لا يُعْتَدّ بها ولا تُخْرِج القرآن من ثم من عروبته . وهذا القول منسوب إلى ابن عباس وعكرمة وغيرهما . أما الرأى الثالث فيتلخّص فى أن العرب قد عَلِقَتْ هذه الألفاظ فى أثناء سفرها إلى البلاد المجاورة ، لكنهم عرّبوها ، أى أعطَوْها شكلا عربيا حتى جرت مجرى العربى الصريح . ومن أصحاب هذا الرأى أبو القاسم عبيد بن سلام(١) .

وكعادتى فى التسليم بما يقول صويحبنا سوف أفترض أن كل هذه الألفاظ هى فعلا ألفاظ أعجمية ، فهل هذا يُخْرِج القرآنَ عن

---

(١) يُنْظَر فى ذلك السيوطى / المزهر فى علوم اللغة وأنواعها / تحقيق جاد المولى والبجاوى وأبو الفضل إبراهيم / مكتبة عيسى البابى الحلبى / ١٩٥٨م/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩ ، ود. عبد القادر حسين / من علوم القرآن وتحليل نصوصه / دار قطرى بن الفجاءة / الدوحة / ١٩٨٧م / ٤٢ ـ ٤٣ .

عروبته ؟ أبدا لأنه ما من لغة من اللغات إلا وفيها ألفاظ كثيرة جدا من اللغات الأخرى . بل إن اللغة العالمية الأولى فى عصرنا الحالى ، وهى الإنجليزية ، مفعمة بآلاف الألفاظ والعبارات المأخوذة بنصها من اللاتينية والفرنسية والعربية والألمانية والفرنسية واليونانية . وفى الإسبانية، وهى أيضًا إحدى اللغات العالمية ، عدد هائل جدا من الكلمات العربية ، ولا يقدح ذلك فى إسبانيتها . وقل مثل ذلك فى الفارسية والتركية والسواحلية والأوردية ، ولم يدّع أحد أن هذه اللغات قد فقدت هويتها بسبب ما غزاها من جيوش الألفاظ والعبارات العربية. إن الظن بأن هناك لغة نقية من الألفاظ الأجنبية هو كالظن بأن هناك جنسا من الأجناس البشرية لم تخالط دماءه أية دماء أجنبية قط ، وهو ظنٌ طفوليٌ لا يقول به إلا أحمق متنطع كصاحبنا[١]. والعبرة على كل حال بقواعد اللغة وتراكيبها وطرائقها الخاصة بها فى التعبير والتصوير وما إلى ذلك[٢]. ولنفترض أن هذه الألفاظ مما

---

(١) انظر ، فى تبادل المفردات بين اللغات ، على سبيل المثال د. على عبد الواحد وافى / علم اللغة / ط٩ / دار نهضة مصر / ٢٥٢ ـ ٢٥٦ .

(٢) وانظر رأى يعقوب صروف (النصرانى) فى هذه المسألة فى رسالته التى بعث بها إلى المجمع العلمى العربى بدمشق يدافع عن خطته فى تعريب الألفاظ الأعجمية وعدم اللجوء إلى ترجمتها فى بعض الأحيان (المجلد ٧٤ من «المقتطف»/ ص٨).

يُخْرِج القرآن عن عربيته ، فإلى أية جنسية يا ترى ننسبه ؟ ثم إن الكتاب المقدس عند هذا الأُحَيْمِق وأشباهه تتداخل فيه لغات شتى كما هو معروف ، فلماذا يثير هذه الشبهة إذن ؟ بل لماذا لا يثيرها إلا بالنسبة للقرآن ولم يُثِرْها بالنسبة للغة العربية كلها ؟ أم إن أفاعى حقده هو ومن وراءه لا تهيج إلا على القرآن فقط ؟

وهذا كله على افتراض أن هذه الألفاظ كلها فعلا ألفاظ أعجمية. ولقد أثبتُّ فى كتابى «دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل» أن معظم ما يقول المستشرقون والمبشرون إن العربية قد استعارته من اللغات السامية الأخرى هو زعم باطل(١) . كما أن أحد تلامذتى الذين درسوا معى للحصول على درجة الدكتورية قد انتهى فى بحثه إلى أن الأغلبية الساحقة من الألفاظ القرآنية المقول بأعجميتها هى ألفاظ عربية أصيلة(٢) . وقد ارتكن فى دراسته هذه على معرفته ببعض اللغات السامية ورجع إلى كل ما استطاع أن يضع يده عليه من مؤلفاتٍ من كتبوا فى هذه القضية من عرب ومستشرقين .

---

(١) انظر الفصل المسمّى «المسائل اللغوية» من الكتاب المذكور / مكتبة البلد الأمين/ القاهرة / ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م / ١٨٧ ـ ٢١١ .

(٢) وهو د. وحيد صفية المدرس بجامعة تشرين باللاذقية .

وعلى كل حال ففى الكتاب المقدس عند المتنطع المجهول ألفاظ من لغات شتى ، إلا أنه لما تمت ترجمته إلى لغة الضاد أصبحت هذه الألفاظ عربية . ومع هذا ففى الترجمة نفسها ألفاظ كثيرة أبقاها المترجمون كما هى ولم يترجموها إلى العربية ، مثل « الكروبون ، والأفود ، والإيفة ، والبعليم ، والترافيم ، والفُور ، والفُوريم ، والسُّروفون ، والبهيموت ، وماران أثا ، وسِلاَه ، والكِنّارة ، والمهندس ، واللوايااثان ، ومنَّا منَّا تَقِلْ وفَرْسِين ، والتوراة ، والإنجيل ، والآب ، وهلّلويا ، وهُوشَعْنا ، وإيلى إيلى لمّا شبقتنى ، والكرازة ، ورابى ، ورابونى ، ويوصنًا ، وأناثيما ... إلخ » .

* * *

وتحت عنوان « الكلام المتكرر » ، وهو أحد عناوين الفصل التاسع المسمَّى « أسئلة فنية » ، يقول صويحبنا إن « بالقرآن الكثير من التكرار اللفظى كما فى سورة « الرحمن » (يقصد تكرار قوله تعالى مخاطبا الإنس والجن : « فبأى آلاء ربكما تكذّبان؟ » بعد كل آية أو آيتين بدءاً من الآية ١٢) ، أو التكرار المعنوى كما فى قصص الأنبياء» ، ثم يختم كلامه بالسؤال التالى : « أليس فى هذا التكرار عيب الخلل والملل والبعد عن ضروب البلاغة ؟ » (ص ١٨٤ ـ ١٨٥) .

ولن أحاجَّ هذا الأعمى البصر والبصيرة إلا بأن هذا الذى

يستهجنه فى القرآن موجود على نطاق أوسع وأشد بما لا يقاس فى كتابهم المقدس ، فالملل الذى يصيب قارئ الجزء الأخير من سفر « الخروج » وكل أسفار « الأخبار » و « العدد » و « الاشتراع » وأوائل « أخبار الأيام الأول » أمر لا يطاق. إنه يصل إلى حد الغثيان والدُّوار وزغللة العين : فمن سلاسل أنساب وأسماء أشخاصٍ ومواقعَ تتتابع وتتداخل ويأخذ بعضها برقاب بعض، إلى تفصيلات تفصيلات التفصيلات، إلى حوادث يتكرر ذكرها ، وعهود يُعَاد صوغها ... إلخ حتى تتركك القراءة جثة هامدة . وفى « المزامير » و « الأمثال » يظل الإنسان يطالع نفس الأفكار والمشاعر مصوغة بنفس العبارات أو بعبارات متقاربة على مدى مائة وستين صفحة من الصفحات المزدحمة حتى ليختنق اختناقا . ثم هناك أسفار النبوءات الخاصة بأنبياء بنى إسرائيل التى تكتظ بتقريع هؤلاء الأنبياء لأقوامهم الصِّلاب الرقبة وشتّمهم لهم ولعنهم إياهم وشماتتهم بهم وتنبؤهم بما ينتظرهم من مستقبل أسود مما يستغرق مئات الصفحات . وهذا فى العهد العتيق ، أما فى العهد الجديد فعندنا أربعة أناجيل كل منها يحكى سيرة المسيح عليه السلام من البدء إلى النهاية : نفس الحوادث ، نفس الأشخاص ، نفس الحوارات . وقد كانت سيرةٌ واحدةٌ فقط منها تكفى .

وبالنسبة لتكرار آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » عدة مرات فى سورة « الرحمن » نذكّر صويحبنا الجاهل بعبارة « فإن إلى الأبد رحمته » ، التى تتابعت ستا وعشرين مرة فى ست وعشرين جملة هى مجموع المزمور الخامس والثلاثين بعد المائة ، كما تكررت قبل ذلك فى المزمور السابع عشر بعد المائة فى الآيات الثلاث الأولى والآية الأخيرة . ومثلها كلمة « سلاه » ، التى تتكرر كثيرا فى عدد من المزامير تكرارا متقاربا . ولنأخذ أيضاً : « سبّحوا الله فى قدسه . سبّحوه فى جَلَد عزته سبّحوه لأجل جبروته . سبّحوه بحسب كثرة عظمته . سبّحوه بصوت البوق . سبّحوه بالعود والكنّارة . سبّحوه بالدفّ والرقص. سبّحوه بالأوتار والمزمار . سبّحوه بصنوج السماع . سبّحوه بصنوج الهتاف . كلّ نسمة فلتسبّح الربّ » ، وهو كل المزمور المائة والخمسين . وفى الفصلين الأول والثانى من سفر « الجامعة » تظل تتردد فى آذاننا بإلحاحٍ مزعج أن « الجميع باطل وكآبة الروح » . أما فى بداية الفصل الثالث فتأتى عبارة «للشىء الفلانى وقت» ثلاثين مرة على النحو التالى : «لكل غرضٍ تحت السماء وقت : للولادة وقت ، وللموت وقت . للغَرْس وقت ، ولقلع المغروس وقت ... للاعتناق وقت ، وللإمساك عن المعانقة وقت ... للتمزيق وقت ، وللخياطة وقت ...» وهكذا إلى آخر المرات الثلاثين . وفى الفصل الأربعين من سفر « يشوع بن سيراخ » تتكرر عَشَر مرات تقريبا عبارة

«الأمـر الفـلانى والأمـر الفـلانى شـأنهـمـا كـذا وكـذا ، ولكن الأمـر العلأنى فوق كليهما». وفى الفصل الثالث والعشرين من إنجيل متى تقابلنا العبارة التالية سبع مرات منسوبة للسيد المسيح فى صفحة واحدة ليس غير : «الويل لكم أيها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون»، ومثلها فى نفس الفصل عبارة «أيها العميان» أو «أيها الجهّال والعميان» موجهةً أيضًا إلى طائفة الفرّيسيّين . وعلى مدى الفصلين الثانى والثالث جميعا من «رؤيا القديس يوحنا» تقابلنا بعد كل عدة آيات قوله : «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس»... وهذه بعدُ مجرد أمثلة قليلة .

ودعنا الآن مما يكتظ به الكتاب المقدس من تناقضات وأخطاء أصبحت رائحتها تزكم الأنوف ، ولم يعد القوم يقدرون على إخفائها والتعمية عليها كما كانوا يصنعون فى عصور الظلمات والجهل ، بل قصاراهم الآن تسويغها بنظرية مضحكة تقول إن المضمون العقيدى والأخلاقى لهذه الكتابات هو من عند الله ، ومن ثم فلا خطأ فيه ، بخلاف الأسلوب اللغوى والمعلومات التاريخية والحسابية والعلمية ، فهذا من عند المؤلفين الذين وضعوا هذه الكتب ، وهو أمر طبيعى لأنهم بشر . وهى نظرية مضحكة كما قلتُ ؛ فضلا عما فيها من كذب لأن المضمون العقيدى والأخلاقى فى هذه الكتب يعج هو

أيضًا بالأخطاء والتناقضات ويشوّه مفاهيم الألوهية والنبوة والأخلاق تشويها فظيعا .

لهذا ولذلك فإننى لا أستطيع أن أفهم كيف جرؤ هذا الأبله على مهاجمة القرآن بأن فيه تكرارا ! إن ذلك التعيس لينطبق عليه القول المنسوب عندهم إلى السيد المسيح عليه السلام : « ما بالك تنظر القَذَى الذى فى عين أخيك ولا تفطن للخشبة التى فى عينيك ؟ يا مرائى ، أَخْرِج أولاً الخشبة من عينك ، وحينئذ تنظر كيف تُخْرِج القذى من عين أخيك ».

* * *

ومما يُجْلِب به ذلك الأخرق أيضاً من شبهات تبعث على القهقهة ما قاله كذلك فى هذا الفصل تحت عنوان « الكلام الغريب » من أن فى القرآن كثيرا من الكلمات الغريبة مثل « أَبّ وغِسْلين وحَصْحَصَ وعَسْعَسَ والناقور ومُدْهَامّتَان » ، إذ يتساءل قائلا : «أليست هذه الألفاظ الغريبة مخالفة للذوق السليم فى فن الإنشاء؟» (ص١٩٦). فعلا ما كان ينبغى أن تكون فى القرآن مثل هذه الألفاظ ، بل كان يجب أن يجيء أسلوبه على غرار ما كانوا يعلّمونه للأطفال فى بداية المرحلة الابتدائية فى مصر قبل بضعة عقود من مثل : « شَرْشَر

نَطّ يأكل فَتّ »! يا لله من هذا السخف ! يا لله من هذه الرقاعة ! وأبعث من ذلك على القهقهة أن تأتى هذه الملاحظة من جاهل ركيك العقل واللغة لا يستطيع أن يصون عبارته من أخطاء النحو الأولية ! لقد كلّم القرآن الكريم العرب بالأسلوب الذى يفهمونه ، ومن الطبيعى بعد كل تلك القرون أن تصبح بعض ألفاظه غريبة على الأجيال اللاحقة . ومع ذلك فإن مقارنة سريعة لِلُغَته بلغة الشعر الجاهلى تثبت فى الحال أن ما فيه من ألفاظ صارت بمرور الأيام غريبة بعض الشىء ليس شيئا بالقياس إلى ذلك الشعر . إن هذا الجاهل لا يفقه أن اللغة فى مسيرتها مع الزمن تعتريها تطورات وتغييرات كثيرة ، ومع هذا فإن ألفاظ القرآن من أقل الألفاظ تعرضا لمثل هذه التغييرات . وما أسهل ، على من يعرف أسباب نزول الآيات، أن يفهم النص القرآنى رغم ما فيه فى كثير من الأحيان من إيجاز وتكثيف .

وإننى بدورى أسأله : لم يحتاج كتابكم المقدس كل فترة إلى أن يُتَرْجَم من جديد ؟ أليس أحد الأسباب الرئيسية فى ذلك أن لغة الترجمات القديمة تفقد مع السنين بعض ما كانت لتتمتع به من وضوح ؟ ورغم هذا فإن فى ذلك الكتاب ألفاظا لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى المعاجم منها على سبيل المثال : «جَلَد السماء ،

والكِنّارة ، والحُمَر ، والجَوْزَل ، والجُذَامة ، والعُمِر ، والإيفة ، واليَفَاع، والشُّظاظ ، والعُصَافة ، والظُّرّان ، والصُّباء ، والزُّوان ، والعِضاه ، والقُنْدُول ، والقُنّة ، والسُّمّنجُونى ، والحُرُض ، والزُّعَل ، والسُّرافون ، والشُّونيز ، والقَطَانىّ ، والهَذيذ ، والوَغْر ، والخَراعب ، والوَنَج ، والسّنطير ، والأُفود، والأنوق ، والزُّمّج ، والوَرَل ، والحِرْذَوْن ، والبَلَسان» ... إلخ ... إلخ إن كان لذلك من آخر !

أما الركاكة والتواء العبارة والعجز عن التعبير الواضح السلس فى « أعمال الرسل ورسائلهم ورؤيا القديس يوحنا » مثلا فأمر يهون إلى جانبه ذَنَب الضّبّ الذى تُضْرَب به الأمثال فى القبح والتعقيد . وهناك أيضًا مواضع فى الكتاب المقدس تبلغ من الإبهام حدًا يجعل الشراح يخبطون رؤوسهم فى الحائط بسبب عجزهم عن فهم المراد منها مثلما هو الحال فى الفصل الثامن عشر من «نبوءة أشعيا» ، الذى يقول عنه شُرّاح الترجمة الكاثوليكية إنه « فى غاية الإبهام والخفاء كما صرّح بذلك جميع المفسرين من المتقدمين والمتأخرين»[1] .

وإلى القارئ الآن بعض أمثلة من ركاكة الأسلوب أخذناها

(١) انظر الحواشى الملحقة بترجمة العهد العتيق / ص٥٣ / نهر ١ / الفقرة قبل الأخيرة .

كيفما اتفق ، وهى من رسالة بولس إلى أهل روما : « لأن غير منظوراته (أى غير منظورات الله) قد أُبْصِرَتْ منذ خلْق العالم إذ أُدرِكَتْ بالمبروءات » ، «فلذلك أسلمهم الله فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة لفضيحة أجسادهم فى ذواتهم» ، «لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الفضيحة ، فإن إناثهم غَيَّرْن الاستعمال الطبيعى بالذى على خلاف الطبيعة» ، «ويكون القَلَف الذى بالطبيعة وهو يُتِمّ الناموس يدينك أنت الذى بالحرف والختان تتعدّى الناموس» ، «ونحن نعلم أن كل ما يقوله الناموس يقوله لأصحاب الناموس لكى يسدّ كل فم ويصبح العالم كله مجرما لدى الله ، إذ لا يُبَرّر بأعمال الناموس أحد من ذوى الجسد أمامه لأنها بالناموس عُرِفت الخطيئة . أما الآن فقد اعْتَلَنَ بِرّ الله بغير الناموس مشهودا له من الناموس والأنبياء ، وهو برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كُلّ وعلى كُلّ من الذين يؤمنون لأنه لا فرق ، إذ الجميع قد خَطِئوا فيعوزهم مجد الله فيُبَرَّرون مجانا بنعمته بالفداء الذى هو بالمسيح يسوع» ، «طوبى للرجل الذى لم يحسب عليه الربّ خطيئة . أَفَلِلْختان فقط هذه الطوبى أم للقَلَف أيضًا؟ فإننا نقول إن الإيمان حُسِبَ لإبراهيم بِرًا ، فكيف حُسِب ؟ أإذا كان فى الختان أم إذا كان فى القَلَف؟ إنه لم يكن حينئذ فى

الختان بل فى القَلَف . وقد أخذ سمة الختان خاتماً لِبِرّ الإيمان الذى كـان فى القَلَف ليكون أبًا لجـمـيع الذين يؤمنون وهم فى القلف لِيُحْسَب لهم أيضًا البِرّ » ... إلخ ... إلخ . أفيجوز لخريج هذه المدرسة الأسلوبية أن يتشامخ على أسلوب القرآن ؟ بُعْداً له وليوم أقدم فيه على تلك الجريمة !

الفصل الثانى

(شبهات خاصة بالمضمون)

شبهات خاصة بالمضمون

وبعد أن انتهينا من الاعتراضات اللغوية وبدا أنْ ليس للعبد الفاضى عينان فى رأسه ولا عقل أيضًا نتحول إلى اعتراضاته الخاصة بالمضمون. ولأن هذه الاعتراضات كثيرة ومتنوعة ، وبعضها مما لا يمكن أن نصل فيه إلى شىء بسبب تعلقه بأمور مستقبلية أخبر القرآن أنها ستقع فى آخر الزمان مما لا مدخل فيه للأخذ والردّ لأنه لم يحدث بعد ، فلسوف أكتفى باختيار عدد كاف من هذه الاعتراضات لمناقشتها ، مستصحبًا معى المسامحة الشديدة التى اصطحبتها فى المناقشات اللغوية . ولسوف يرى القارئ الكريم ، رغم ذلك ، أن الأسداد قد ضُرِبَتْ على ذلك التعيس الذى يذكّرنا بصرصور ينطح جبلا أشمّ بغية زحزحته عن موضعه !

وها نحن أولاء نتوكل على الله ونجعل مفتتح كلامنا ما قاله الثقيل الظل الوخيم الفهم عن نوح عليه السلام . قال، فضّ الله فاه، ولعنه لعنةً منتقاة : « جاء فى سورة « نوح »/ ٢٤ : « ولا تزد الظالمين إلا ضلالا »، فكيف يدعو نوح ربه أن يزيد الناس ضلالا ؟ كما أن الله ليس مصدر الضلال . ونوح نفسه لا يحب الضلال ، فالتاريخ المقدس يشهد له : « كان نوح رجلا بارًا كاملا فى أجياله »

(تكوين / ٦ / ٩) وأنه «كان كارزا للبِرّ» (٢ بطرس / ٢ / ٥) » (ص٣١) .

هذا ما قاله الشقى ساعيا إلى حتفه بظلفه ، إذ قد أعطانا بذلك فرصة طيبة لنعرض على القراء الأفاضل شيئا من الأفاكيه التى سطّرها مؤلف سِفْر « التكوين » على أنها وحى إلهى ، مع أنها لا تزيد عن كونها خرافات تصلح لسَمَر البدائيين على ضوء القمر فى قلب الغابة. وبعد أن نعرض بعضا من هذه الأفاكيه والأفاويه نُثَنّى فنكرّ على سخافات صويحبنا ونكسحها كسحا . والآن إلى هذه المقتطفات من سفر « التكوين » ، وهى من الفصول التى تسبق ذِكْر نوح فقط :

١ ـ «وكان نهر يخرج من عدن فيسقى الجنة ، ومن ثم ينشعب فيصير أربعة أرؤس : اسم أحدها فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب . وذَهَبُ تلك الأرض جيد . هناك المُقْل وحجر الجَزْع . واسم النهر الثانى جيحون ، وهو المحيط بجميع أرض الجنة . واسم النهر الثالث حِدّاقل ، وهو الجارى فى شرقىّ أشور . والنهر الرابع هو الفرات » (١٠/١ ـ ١٤). أرأيت أيها القارئ العزيز هذه الدُّرر الجغرافية والجيولوجية الحلمنتيشية التى يتقاصر دونها كل ما فى كُتُب علماء الجغرافيا والجيولوجيا ؟

٢ ـ « فسمعا (أى آدم وحواء) صوت الإله وهو مُتَمَشٍّ فى الجنة عند نسيم النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فيما بين شجر الجنة ، فنادى الربُّ الإلهُ آدمَ وقال له : أين أنت ؟ قال : إنى سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت » (٣/٨ ـ ١٠) . ترى هذا إله أم عمدة من عُمَد الريف عندنا خرج لتفقد حقوله بعد غفوة القيلولة وهبوب نسمة العصارى ؟ ثم أى إله هذا الذى يختبئ منه عباده فلا يستطيع أن يعرف أين اختبأوا فيضطر إلى رفع صوته يسألهم أين يختبئون ؟

٣ ـ «قال الرب لقاين (بعد أن قتل أخاه هابيل) : أين هابيل أخوك؟ قال : لا أعلم . ألعلى حارس لأخى؟» (٤/٩). فانظر إلى قلة الأدب والجلافة الموجودة فى هذا الكلام الموجّه إلى الله ! إنها الوقاحة اليهودية الفاجرة !

٤ ـ « ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض ووُلِد لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس إنهن حسنات فاتخذوا لهم نساءً من جميع من اختاروا ، فقال الرب : لا تحلّ روحى على الإنسان أبدا لأنه جسد، وتكون أيامه مائة وعشرين سنة . وكان على الأرض جبابرة فى تلك الأيام وأيضًا بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم

أولادا . أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر . ورأى الربّ أن شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شرّ في جميع الأيام ، فندم الرب أنه عَمِلَ الإنسانَ على الأرض وأسِفَ في قلبه ، فقال الرب : أمحو الإنسان الذى خلَقْتُ عن وجه الأرض : الإنسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأنى ندمت على خلقى لهم » (٦/١ ـ ٧). هل سمع أحد من عقلاء البشر أو حتى مجانينه أن لله أولادا ؟ ومن أُمُّهم يا ترى ؟ ثم عندما ذهب أولاد الله ليخطبوا بنات الناس ، هل أخذوه معهم ليفاتح آباءهن ويتفق معهم على الشبكة والمهر والشقة والأثاث ؟ ثم أى إلٰه هذا الذى يأسف ويندم على ما فعل ؟ هذا ليس هو الله رب العالمين بل إله من آلهة الوثنيين البدائيين بلغ من غضبه وندمه أنْ تشوّش عقله فلم يعد يستطيع أن يقُوم بأتفه العمليات الحسابية ، فمرةً يقول لنوح : خذ من كل كائنٍ حيٍّ اثنين اثنين ذكرا وأنثى ، ثم ينسى ما قاله بعد قليل فيجعل العدد من الحيوانات الطاهرة ومن طير السماء سبعةً سبعةً ذكورا وإناثا ، ليعود مرة أخرى إلى عَدَد الاثنين[1] . ولقد مرّ فى النص السابق أنه كان هناك جبابرة كثيرون قبل الطوفان : قبل أن يتخذ أبناء الله بنات

---

(١) تكوين / ٦ / ١٩ ـ ٢٠ ، و٧/٢ ـ ٣، ١٥ ـ ١٦ .

الناس ، وأيضا بعد أن اتخذوهن لهم نساء ، إلا أن كاتب هذا السفر ، كعادة مؤلفى الكتاب المقدس ، قد نسى هذا فقال عن نمرود (حفيد ابن نوح ، الذى وِلد بعد الطوفان بزمن طويل) إنه « أول جبار فى الأرض »[1]. وحتى نمرود هذا لا ندرى بالضبط من أبوه : فمرة يذكر الكاتب أبناء كوش بن حام بن نوح فلا يورد بينهم اسم نمرود . لنفاجأ به بعد أقل من سطر يقول : «وكوش وَلَدَ نمرود»[2]

وبعد هذه التفكهة نرجع إلى ما قاله الشقىُّ عدوّ نفسه ، إذ يستغرب دعوة نوح ربّه أن يزيد الناس ضلالا . ونحب أولا أن نوضح أن نوحًا لم يَدْعُ على الناس بإطلاق بل على الظالمين فحسب ، لكن الأعمى البصر والبصيرة لا يدرك هذا . ثم إن نوحًا ، فى كتابهم المقدس ، قد دعا على حفيده كنعان ولَعَنه لا لشىء إلا لأنه هو قد شرب خمرا حتى سَكِر وانطرح على الأرض وتكشفت سوأته فرآه ابنه حام (أبو كنعان) على ذلك الوضع ، فلما أفاق نوح وعلم بما حدث انطلق فى نوبة مسعورة يلعن كنعان ويدعو عليه بأن يجعله الله عبدا

(١) تكوين / ١٠ / ٨ .

(٢) تكوين / ١٠ / ٧ ـ ٨ .

لعبيد إخوته[1] ، مع أنه لا ذنب لحام فضلا عن كنعان المسكين الذى لا ناقة له فى المسألة ولا جمل ، ولكن يبدو أن السكّير لم يكن قد أفاق تماما من الخمر فلم يكن يدرى ماذا يقول ولا ماذا يفعل ، ولا على من يدعو ولا من يلعن . أوَمِثْل هذا اللعّان للأبرياء يستبعد العبد الفاضى أن يدعو على الظالمين من قومه ؟ أهكذا يخرجك حقدك يا عبد الفاضى على سيد الأنبياء عن كل عقل وفهم ؟

ثم إن الذى يسمع ذلك العبد الفاضى وهو يقول إن «الله ليس مصدر الضلال» سيتساءل على الفور : فكيف تؤمنون إذن بما يقوله كتابكم المقدس عن الرب الذى ندم على خلق البشر وعزم على استئصالهم ؟ ولماذا لم يفكر فى هدايتهم بدل هذا القرار الاستئصالى الذى لن يأتى رغم ذلك بالنتيجة المرجوة لأن البشر لن يتغيروا؟ والمضحك فى الأمر أن الرب ، الذى يعرف هذا جيدا ، قد أخذ احتياطه (حسب كلام الكتاب المقدس نفسه) حتى لا ينسى مرة أخرى فى غمرة ندمة على خلّق البشر فيُغْرِقهم بالطوفان كما

(١) تكوين / ٩ / ٢٠ ـ ٢٧ . وغنىٌّ عن البيان أننا لا نصدق أن نوحا عليه السلام قد أتى شيئا من ذلك ، فنوح عندنا نبى كريم ، لكننا نجارى الشقىّ . فحديثنا هنا إنما هو عن نوح العهد العتيق الذى ليس فى سفر « التكوين » أبدا أنه نبى ، لا عن نوح الذى نعرفه فى قرآننا الكريم .

فعل من قبل ، إذ لجأ إلى وسيلة تذكّره إذا سها ، ألا وهى أنه عند سقوط المطر يَظْهَر قوس قزح ، فإذا رآه تنبّه فلم يرسل عليهم الطوفان[1].

وما دام العبد الفاضى قد فهم أن الله ليس مصدر الضلال ، فَبِمَ يا ترى يفسّر غيرة هذا الرب ذاته من آدم لمعرفته الخير والشر مثله كما جاء فى الكتاب المقدس ، فأخرجه لذلك من الجنة إلى الأرض وما فيها من تعبٍ وهمٍّ[2] ؟ وما السر يا ترى فى حقد ذلك الرب على البشر حين رآهم شعبًا واحدا ذا لغة واحدة فبلبل ألسنتهم وشتّت شملهم وبدّدهم فى الأرض تبديدا[3] ؟ وإذا كان نوح ، كما يقول العبد الفاضى ، بارًا كاملا فى أجياله ، فكيف يا ترى كان يسكر على النحو الذى رأينا ويلعن حفيده ويدعو عليه بالعبودية دون ذنب جناه ذلك الحفيد المسكين ؟ من هنا فإننا لا ندرى لأى سبب «نال نوح حظوة فى عينى الرب». إن سفر «التكوين» لا يذكر لنا شيئا يستحق أن ينال لأجله الحظوة الإلهية دون سائر البرية ! ولقد لعن

(١) تكوين / ٩ ـ ٦ ـ ١٧ .
(٢) تكوين / ٣ / ٢٢ ـ ٢٣ .
(٣) تكوين / ١ / ٩ .

المسيحُ نفسُه شجرةَ تين حسبما هو مكتوب فى الأناجيل لا لشىء سوى أنه لم يجد فيها تيناً لأن الموسم لم يكن موسم تين . فما وجه الغرابة إذن أن يدعو نوح على الظالمين من قومه بأن يزيدهم الله ضلالا ، أى بألا يعطيهم سبحانه فرصة أخرى بعد أن استنفدوا كل الفرص على مدى مئات السنين التى ظل يدعوهم فيها إلى الله عبثا فأصرّوا على ما هم فيه من ضلال؟ ما وجه الغرابة فى هذا أيها التعيس؟

* * *

ويستنكر الشقىّ أن يكون إسماعيل عليه السلام رسولا نبيا طبقا لما جاء فى سورة « مريم »/ ٥٤، قائلا : « كيف يكون إسماعيل نبيا، والتوراة تصفه فى «تكوين»/ ١٦/ ١٢ : «وإنه يكون إنسانا وحشيا : يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه» ؟» (ص٤٠). وإننا لنسأل: وهل فى هذا النص أن الله حَرَمَه من النبوة ؟ وهذا إن صدّقنا أنه نص صحيح ، وهو ما لا يدخل عقولنا أبدا . كيف ذلك ؟ تعالوا لنتفحص النص عن قرب ونجول جولة فى بعض أسفار الكتاب المقدس لنرى مدى منطقية ما يقول .

وأول شىء يستلزم أن نقف حياله هو أن هذه العبارة التى استشهد

بها ذلك التعيس هى جزء من بشارة ملاك الرب لهاجر أم إسماعيل (عليها وعلى ابنها السلام رغم أنف الحقَدة من بنى إسرائيل ومن يشايعونهم فى هذا الحقد عليهما)، وذلك حين هربت من المعاملة المذلّة التى كانت تعاملها بها سارة عليها السلام حسبما يقول كاتب سفر «التكوين». وهذه هى بشارة الملاك كاملة: «لأُكَثِّرَنَّ نسلك تكثيرا حتى لا يُحْصَى لكثرته. وقال لها ملاك الرب: هأنت حامل، وستلدين ابنا وتسمينه إسماعيل لأن الرب قد سمع صوت شقائك، ويكون رجلا وحشيا: يده على الكل، ويد الكل عليه، وأمام جميع إخوته يسكن»[1]. وأستحلفك أيها القارئ الكريم: أهذه بشارة أم نذارة؟ أمن الممكن أن يمتنّ الله على عبد من عباده بأنه سينعم عليه مثلا بقصرٍ فخم لن يجد فيه راحة أبدا بل ستكون أيامه فيه كلها شقاءً ونكدا، أو أن يقول له: إنى واهبُك يا عبدى ثروة هائلة تنفقها إن شاء الله على أمراضك وأمراض أولادك المستعصية؟ بالله أهذه بُشْرَى؟ إنها لإنذار بالهمّ والغمّ والشقاء! والمضحك أن هاجر، كما جاء فى الآية التى بعد ذلك، تبتلع فى سذاجة مطلقة لا تُحْسَد عليها هذا الكلام الذى لا يدخل العقل وتعدُّه مكرمة عظيمة!

---

(1) تكوين / ١٦ / ١٠ ـ ١٢.

أما الأمر الثانى فهو أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئا من هذا التوحش الذى دمغ به إسماعيلَ ملفّقُ الكلام السابق ، بل على العكس نرى يعقوب بن إسحاق يذهب فيتزوج مَحْلَة بنت إسماعيل بدلا من بنت خاله التى أمره أبوه باتخاذها امرأة له[1] . فأين التوحش هنا ؟ وواضح أن يعقوب كان يعرف أنه لا تصلح له بنت أخى أمه ، تلك الأم التى أضرمت بينه وبين أخيه عيسو نار الكراهية والتقاتل حسبما جاء فى العهد العتيق فابتعد عن كل ما له صلة بأمه وأخذ بنت عمّه الرجلِ النبيلِ الذى افترى عليه الزورَ ملفقُ سفر «التكوين» الكذابُ الأشِر .

لكن ما الذى فعلته رفقة زوجة إسحاق فأضرمت به نار الكراهية والانشقاق والتقاتل بين ولديها ؟ لقد أراد زوجُها الشيخُ الكليلُ البصر أن يبارك ابنَها البِكْرَ عيسو ، لكنها تسارع فتخبر يعقوب بما ينويه أبوه، وتطلب منه أن يهيئ لأبيه طعاما قبل أن يعود أخوه من رحلة الصيد بالطعام الذى اشتهاه أبوه ، وأن يلبس ملابس أخيه ويغطى يديه وعنقه بفروة معز لأنه كان أملط على عكس عيسو الأشعر . وتدخل الحيلة الساذجة مع الطعام الجيد والخمر المعتقة عقل إسحاق ، وينال

---

(1) تكوين / ٢٧ وما بعده .

يعقوب البركة بالتزوير . وعند رجوع عيسو من الصيد وعلمه بما وقع يخبر أباه بما حدث فيكون ردّه أنه لا يستطيع له شيئا لأن البركة قد أخذها أخوه ، وما انكسر لا يمكن إصلاحه[1] ، ولا أدرى لماذا ، فالمفروض أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، بيدَ أنه كان لنبى الله يعقوب رأى آخر . ولكن فلْنعِدّ عن هذه أيضا ، وإلا فلن ننتهى، فكل العهد العتيق هكذا ، فإذا ذهبنا نرقّعه تَمَزّق فى أيدينا ! المهم أن البغض والحقد والتناحر قد طبع منذ ذلك الحين العلاقةَ بين الأخوين بطابعه الخبيث ، والبركةُ فى الأم ، التى يجعلها أهل الكتاب نبية من أنبيائهم ، وكأن الحِنْث والشر والكذب والإجرام والخداع والتلفيق هى مؤهلات النبوة عندهم[2] . أرأيتم ، أيها القراء الأعزاء ، فى أى معسكر يُوجَد التوحش : فى إسماعيل عليه السلام وذريته أم فى المعسكر المقابل ؟

على أن هذا لم يكن التزييف الأول فى حق إسماعيل ، فقد سبق أنْ كَذَبَ العهدُ العتيقُ عليه وتجاهله فى مسألة الذبح كأنه لم

---

(١) تكوين / ٢٧ وما بعده .

(٢) رددتُ على الزعم الخاص بنبوة رفقة هذه فى كتابى « مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى »/ مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م/ الفصل الخاص بـ « نبوة النساء » والذى يشغل الصفحات ٩٩ ـ ١١٥ .

يكن له وجود البتة أو كأنه على الأقل لم يكن قد وُلِد بعد . وتفصيل الأمر أن إسماعيل ، كما هو معروف وكما جاء فى الكتاب المقدس نفسه ، قد وُلِد قبل إسحاق بعدة أعوام ، ومع ذلك يقول ملفق سفر «التكوين» ، الذى يتنفس الكذب تنفّسا ويتمتع بوجه وقح فلا يطرف له جفن ، وهو يقترف الكذب جِهارًا نهارًا وعلى مرأى ومسمع من العالمين، هذا الملفق الكذاب يقول إن الله أراد أن يمتحن إيمان إبراهيم فقال له: « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق وامض إلى أرض مورِيّة وأَصْعِدْه هناك مُحْرَقَةً على أحد الجبال الذى أُريك...»[1] . أيعقل أن يقول الله عن إسحاق إنه ولد إبراهيم الوحيد ؟ فماذا كان إسماعيل إذن ؟ ألعلّه كان ابن الجيران ؟ أم ترى نسى الله سبحانه أنه كان قد وهب لإبراهيم قبل عدة أعوام ابنًا اسمه إسماعيل؟ لكن لماذا؟ أيمكن أن يكون هذا هو الله رب العالمين الذى نعرفه أم هو إله من آلهة الوثنيين البدائيين ؟ ثم يأتى فى آخر الزمان صويحبنا الجاهل ويتحدانا بمثل هذه السخافات ! عجبتُ لك يا زمن !

ولأن الطبع غلاب فإن يعقوب عاد بعد هذا فصاهر خاله لابان عابد الأصنام ... ولكن يحسن أن نورد القصة كاملة أوّلاً حتى يتبيّن

(١) تكوين / ٢٢ / ١ ـ ١٣ .

للقارئ أن فوق كل ذى مكر من هو أمكر منه . لقد شاهد يعقوبُ أثناء ترحاله إلى الشرق بنتَ خاله راحيل وهى تسوق غنمها إلى البئر، وكانت راحيل جميلة ، فأخذت بلبّه ، وجاء أبوها فعانقه وقبّله وأخذه إلى بيته حيث مكث عنده سبع سنين خدمه فيها لقاء التزوج بحبيبة قلبه . بيّدَ أنه فى صباحيّة دخوله بها فى آخر السنوات السبع فوجئ بأن خاله قد زوّجه بدلا منها ليئة أختَها العاطلة من الجمال[1] . أى أنه أعطاه «مَقْلبًا سُخْنا» ، ومن شابه أخته فما ظلم ! ورغم ذلك يصف مؤلفُ سفر «التكوين» إسماعيلَ بالتوحش والنفور من الخلّق ونفور الخلّق منه ! وثمة نقطة أخرى فى القصة تدل على سذاجة هذا الملفّق الذى يكذب ولا يعرف كيف يسوّى كذبه كما يقول أهل الريف ، إذ يذكر أن يعقوب لم يتبيّن الخدعة إلا فى الصباح . أى أنه قضى الليل كله فى أحضان ليئة وهو يظنها راحيل ! ترى ألم يكن هناك نور فى تلك الليلة البتّة ؟ وحتى لو لم يكن هناك نور ، أكانا يمارسان الجنس فى فلم من أفلام السينما الصامتة فلم يتعرف يعقوب على عروسه من صوتها ؟ انظر أنت أيها القارئ وتعجّبْ ، أما أنا فسأسكت ! ثم يقولون بعد ذلك كله إن هذا وحى إلهى !

---

(١) تكوين / ٢٩ / ١ ـ ٢٥ .

ولكن هل هذا هو كل شيء ؟ كلاّ ، فما زلنا فى أول فصول المسرحية الهزْلية ، وإن كنت لا أنوى أن أحكى كل فصولها بل سأجتزئ ببعضها ، وبمكنة القارئ أن يقيس ما لم أحْكِه على ما حكيتُه . وها نحن أولاء الآن مع أولاد يعقوب ، الذين مزقتهم الأحقاد بسبب المعاملة المتحيزة التى كان أبوهم يميز بها بعضهم على بعض . ومعروفة قصة يوسف وتآمر إخوته عليه مما حكاه العهد العتيق والقرآن الكريم جميعا ، وهو تآمر بشع يدل على المدى الوحشى الرهيب الذى بلغه الانشقاق بين أولاد يعقوب . ثم لا يستحى ملفّق سفر «التكوين» فيرمى إسماعيل عليه السلام بالوحشية والنفور رغم كرمه ونبل طبعه وأخلاقه ! إلا أن فضائح بيت يعقوب طبقا لرواية العهد العتيق لم تنته بعد ، فقد وقعت دينة بنت يعقوب فى غرام شكيم بن حَمُور الوثنى الأقلف ومارست معه الفاحشة[1] ، كما زنى أخوها يهوذا بثامار أرملة ابنه عير وهو يحسب أنها بغىّ ، إذ كانت أخذت زينتها وهيّأت نفسها له وترصدته حتى أوقعت به وهى متنقبة . ومن بجاحته أنه ، عندما علم أنها قد اشتغلت بغيًا ، أمر بإخراجها

(١) هذا ما رواه ملفّقو العهد العتيق (تكوين / ٣٤ / ١ وما بعدها) ، وإن كنا نحن المسلمين نستبعد تماما حدوث مثل ذلك الدّنَس فى بيوت أنبياء الله ، ولكننا نجرى مع ما يقول القوم ، وهذه غاية المسامحة من جانبنا ، إذ لا نأخذهم إلا بأقوالهم هم.

لتُحْرَق جزاء ممارستها للبغاء ، لكنْ ما إنْ عرّفته أنها إنما مارست معه الزنا لا مع غيره حتى خَرِسَ وأكفأ على الخبر ماجورا ، وعفا الله عما سلف[1] !

ولا يقلّ رءوبين أخوه عنه في الفحش والفجور إن لم يَفُقْه ، فقد اعتدى على عِرْض أبيه فضاجع سُرِّيته[2]. ولعلك ، أيها القارئ العزيز، تظن أن الأب قد ثار على هذا الفجور وأدّب الزانيَيْن بما يستحقان ، لكن أرجوك ألا تكون حسن النية إلى هذا الحدّ لأن كتابهم المقدس يقول شيئا آخر ، فها هو ذا يعقوب يدعو أولاده في آخر عمره ليكلمهم في بعض الأمور المهمة ، فيكون أول كلامه أن خاطب رءوبين قائلا : « رءوبين ، أنت بِكْرى ، قوّتى ، وأول قدرتى. فاضلٌ في الشرف ، فاضلٌ في العزّ . فُرْتَ كالماء . لا تَفْضُل لأنك عَلَوْتَ مضجع أبيك . حينئذ دنّسْتَه . على فراشى صَعِد »[3]. وواضحٌ رنّة الفخر برءوبين في كلام أبيه ، إذ يصفه بأنه « فاضلٌ في الشرف، فاضلٌ في العزّ » وبأنه « أول قدرتى » . أما الجملتان الأخيرتان اللتان يلمح فيهما إلى زنا ابنه بسرّيته فهما كالنغمة الناشزة بين سائر أنغام

(١) تكوين / ٣٨ كله . وأنا لا أصدق شيئا من ذلك ، ولكن هكذا يقول الملفّقون !

(٢) تكوين / ٢٥ / ٢٢ .

(٣) تكوين / ٤٩ / ١ ـ ٤ .

اللحن الأخرى المتناسقة . وعلى أية حال فهما كل ما هنالك من رد فعل على هذه الفاحشة النكراء ! حقا أنها عائلة شريفة !

ومن هذا الوادى المنتن أيضًا ما عزاه الكتاب المقدس إلى داود عليه السلام من التجسس من فوق قصره على زوجة قائده الحربى أوريًا وهى تستحم عارية فى فناء بيتها المكشوف (على طريقة مشاهد « الإستربتيز : striptease ») ، ثم استدعائها إلى القصر والزنا بها ، ثم قضائه على زوجها بمؤامرة إجرامية خسيسة ، ثم تعزيته لها فيه (فهو يقتل القتيل ويمشى فى جنازته !) ، ثم تزوُّجه بها وإنجابه سليمان منها. أى أن سليمان عليه السلام عندهم هو ابن هذه الزانية! الله أكبر ! فلا عجب إذن أن ينّظِم من كان ابنا لمثل هذه المرأة نشيد العُهْر المسمّى « نشيد الأناشيد ». وكانت نتيجة فَعْلة داود مع امرأة قائده أن سَخِط الله عليه وتهدده قائلا : « والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ... إنى مثيرٌ عليك الشرّ من بيتك ، وسآخذ أزواجك وأدفعهن إلى غيرك فيدخل على أزواجك فى عين هذه الشمس »(١). وتستمر مخازى هذه العائلة المحترمة حسبما سطّر ملفّقو الكتاب المقدس ، فهذا هو أمنون بن داود يقترف زنى المحارم مع أخته الجميلة

(١) الملوك الثانى / ١١ كله و١٢ حتى الجملة الحادية عشرة .

تامار ، ولم يفاتحه أبوه بكلمة حرصا على ألا يؤلمه لأنه كان يحبه[1]. أَنعِمْ وأَكْرِمْ ! ورغم ذلك كله يشمخ العبد الفاضى على إسماعيل عليه السلام قائلا إنه لا يصلح للنبوة . هل رأيتم وقاحة من قبل كهذه الوقاحة ؟

ولْنَعُدْ إلى نبوءات يعقوب الخاصة بمستقبل أولاده الآخرين حيث نقرأ : « شمعون ولاوى أخوان . سيوفهما آلات جَوْر . مجلسهما لا تدخله نفسى ، وفى مجمعهما لا تتّحد ذاتى . فى سخطهما قَتَلا إنسانا، وفى رضاهما عَرْقَبَا ثورا . ملعونٌ سخطهما فإنه شديد ، وغضبهما فإنه قاسٍ . أقسّمهما فى يعقوب ، وأبدّدهما فى إسرائيل . يهوذا ، إياك يحمدك إخوتك . يَدُك على قُذُلِ أعدائك . يسجد لك بنو أبيك[2] ... يكون دانُ ثعبانا على الطريق وأفعوانا على السبيل ، يلسع رُسغ الفرس فيسقط الراكب إلى الوراء ... جادُ يَقْحَمه الغزاة ، وهو يقحم ساقتهم ... يوسف ... قامَرتْه أصحاب السهام ورَمَتْه فاضطهدتْه ... بنيامين ذئب يفترس . بالغداة يأكل غنيمة ، وبالعشىّ يقسم السَّلَب »[3].

---

(1) الملوك الثانى / ١٣ / ١ ـ ٢١ .

(2) لاحظ أن يهوذا ذاك هو الذى مارس زنا المحارم مع كَنّته . يا لها من نبوءات صادقة !

(3) تكوين / ٤٩ / ٥ ـ ٢٣ .

ثم إن بنى إسرائيل كانوا على امتداد تاريخهم الطويل ولا يزالون يبغضون الأمم الأخرى وتبغضهم الأمم الأخرى حتى ضُرِب المثل بـ « الجيتو » و « حارة اليهود » حيث يعيشون فى عزلة عن سائر أهل البلاد التى ينزلونها . وأسفار العهد العتيق تضطرم باللعنات والنبوءات القاتمة التى تنتظر ذلك الشعب الصُّلْب الرقبة ، وهو دائما وأبدا محطّ سخط الله وشتائمه ورزاياه . لنستمع معا إلى أَشَعْيَا على سبيل المثال وهو يصرخ فى غضب ويأس من صلاح حال أولئك الأوغاد : «السيّد (أى الربّ) أرسل كلمةً على يعقوب فوقعتْ على إسرائيل ، وسيعلم الشعب كله ... سينْهِض الربّ عليه أضداد رَصِينَ ويسلّح أعداءه : أرام من الشرق ، وفلسطين من الغرب ، فيأكلون إسرائيل بكل أفواههم ... سيقطع الرب من إسرائيل الرأسَ والذَّنَب ... بغضب رب الجنود تضطرم الأرض فيكون الشعب مثل وقود النار ، لا يشفق واحد على أخيه ... يأكلون كلٌّ واحد لحم ذراعه : مَنَسَّى أفرائيم ، وأفرائيم مَنَسَّى ، وكلاهما يقومان على يهوذا . مع هذا كله لم يرتدّ غضبه ، ولم تزل يده ممدودة »[1].

والآن يثور سؤالٌ : من الوحشيون يا ترى : إسماعيل وذريته أم

---

(١) نبوءة أشعيا / ٩ / ١٦ ـ ٢١ .

إسحاق ، وهؤلاء هم أولاده وأحفاده كما يعرضهم علينا الكتاب المقدس : خنًا وغشٌ وكذبٌ وقتل وتآمر خسيس وزنا بالمحارم وحقد وقتال فيما بينهم ومع الآخرين ؟ ولقد انتهى أمر السيد المسيح مع بنى إسرائيل إلى أن أدار ظهره لهم بعدما لقى منهم الأمرّين وأعطى وجهه للأمم الأخرى وطلب من تلامذته أن يحملوا دعوته إليهم طبقا لما تقوله الأناجيل ذاتها . أفَلَكَ بعد ذلك أيها الأحمق عينٌ تجرؤ على مواجهتنا بها ؟

* * *

وبالنسبة لما جاء فى القرآن الكريم عن امرأة العزيز ودعوتها من يَلُكْنَ سيرتها من نسوة المدينة إلى مُتَّكأ فى بيتها واعترافها أمامهن بأنها مشغوفة بيوسف ... إلخ يتساءل الأحمق مستنكرا : «هل يُعْقَل أن زوجة ضابط كبير تهئ وليمة خِصِّيصًا وتدعو سيدات أشراف المدينة لتعلن أمامهن غرامها بعبدها وتكشف عن وجهها برقع الحياء دون أن تخشى فضيحة ؟ وكيف يُعْقَل أن النسوة ينشغلن بجمال يوسف حتى ليقطّعن أيديهن بالسكاكين من غير إحساس من شدة الذهول ؟» (ص ٤١) .

وأحسب أن القراء الكرام ، بعد فضائح الكتاب المقدس التى

ذكرتُها لهم، يستطيعون أ ن يدركوا إلى أى مدًى بلغ جمود وجه هذا الأحمق الذى يتظاهر بطيبة الطوية ويستغرب أن يصل التدله بامرأة ضابط كبير إلى ذلك الحدّ . يا أخا الحماقة ، إن الترف الإجرامى ليؤدى إلى هذا وإلى ما هو أشنع من هذا كما يعرف كل الناس . وماذا يُنْتَظَر من امرأة كانت تطارد ابنها بالتبنى على هذا النحو وتقول له بصريح العبارة كما جاء في كتابكم المقدس : «ضاجِعْني» (هكذا بالحرف الواحد) ؟ ثم إن زوجها ، طبقًا لما جاء فى كتابكم ، كان خصيًا ، أى أنها كانت تعانى من الحرمان الجنسى المطلق [1]. كما أن أولئك النسوة قد فَضَحَنَها فى كل مكان بالمدينة فلم يعد هناك معنى لاحتفاظها ببرقع الحياء ، إذ وقعت الواقعة وانتهى الأمر .

ولقد تابع العالَم منذ سنوات غير بعيدة الأمير تشارلز ولىّ عهد بريطانيا وزوجته الأميره ديانا ، وكلاهما يعترف فى المرناء أمام مئات الملايين فى أرجاء الكرة الأرضية باللقاءات الجنسية التى مارسها فى

---

(١) لستُ أصدق أن زوجها كان خصيًا ، لأن الخصيان لايتزوجون، ولأنها هى نفسها ما كانت لتقبل الزواج منه لو افترضنا أنه فقد عقله وأقدم على هذه الخطوة ، لكنى آخذ صُوَيْحبنا الأحمق بما جاء فى كتابهم لأبيّن له أنه ، فى كل ما يشغب به على القرآن، إنما يتخبط على غير هدًى فى القفص الضيق الذى سعى إليه بظلفه!

الحرام من وراء رفيقه . وقبل ذلك بسنوات كان التلفاز البريطانى مشغولا فى نشراته لفترة طويلة بعشق الأميرة آن (أخت تشارلز) للضابط مارك فيليبس وبعشق خالته الأميرة مرجريت لأحد المصوِّرين . وقل مثل ذلك فى زوجتَىْ أخويه . كذلك فالأحمق يعرف جيدا ما كان يفعله بعض بابوات روما فى العصور الوسطى ، إذ يصطحب الواحد منهم عشيقته معه وهو يدور على رعاياه فى جولاته «المقدسة» (المقدسة جدا) بوصفه خليفة المسيح على الأرض (ومعروف ما يمثله المسيح عليه السلام عند النصارى) ، فضلا عن أن بعضهم الآخر كان يمارس الزنا مع أخته بعلم من حوله على أقل تقدير !

وفى الكتاب المقدس نفسه نجد مثلا ابنتَىْ لوط تتفقان دون خجل أو حياء على أن تسقيا أباهما خمرا حتى يفقد الوعى ثم تضاجعاه الواحدة بعد الأخرى لتَحْبلا منه . ولا ننس داود ، الذى رأيناه ، بعد أن شاهد بتْشَبَع زوجة أوريّا قائده من فوق سطح القصر ، يرسل من يُحْضِرها إليه ويُدْخِلها عليه . ومعنى ذلك أنه ، وهذا كلام الكتاب المقدس لا كلامى ، لم يستح من إعلان عشقه لها أمام رجال حاشيته على الأقل . ثم إنها ، بعد أن حملت منه ، قد أرسلت إليه من ينبئه بالأمر . ومعنى ذلك أيضا أنها لم تخجل من أن تعلن أمام من أرسلتهم إليه أنها زنت معه وحملت منه . ثم إنه قد اتفق مع

بعض رجاله أن يخلصوه من أوربا زوجها حتى يخلّص له وجه بتّشبّع . ومعنى ذلك ثالثا أنه لم يخجل من إبداء تدلهه فى هواها وما استتبعه هذا التدله من القضاء على الزوج المسكين [1] . أفقْ يا عبد الفاضى من أوهامك السخيفة ، ولاتحاول أن تقترب من القرآن لأنه «لا يمسّه إلا المطهّرون» !

أما مسألة تقطيع النسوة أيديهن ، فما الغريب فى أن تجرّح نَفْسَها، بسكين حاد فى يدها تقطع به الفاكهة، امرأةٌ مترفةٌ نَزِقةٌ طائشةٌ عندما يخرج عليها فجأةً شاب باهر الوسامة قد أصبح حديث المدينة بسبب ولَهِ امرأة العزيز بهيلها وهيلمانها به ؟ وفى كثير من القصص والأفلام الواقعية من صنوف هذا الوله المجنون ما لا يُعَدّ

(١) وهناك الآن أندية العراة حيث لايخجل أعضاؤها من كشف سوآتهم بعضهم أمام بعض ، وكذلك جمعيات تبادل الزوجات ، ومؤتمرات الشواذ العلنية ومظاهراتهم فى الشوارع ومطالبتهم بحرية الشذوذ وأن يعاملوا معاملة محترمة ولا يتعرض لهم أحد بأى شىء . وفى المحاكم فى جميع أنحاء العالم كثير من قضايا الأحوال الشخصية التى يتبادل فيها الزوجان اتهامات الخيانة ويخوضان على مرأى ومسمع من جمهور الحاضرين فى أمور تشمئز منها النفوس الكريمة . ولقد كان بمستطاعهما تجنب كل ذلك والتفاهم على الطلاق الهادئ بعيدا عن الفضائح ، لكنهما يفضلان مع ذلك سلوك هذا الطريق الوعر ونشر غسيلهما القذر أمام كل العيون !

الذى فعلته صواحب يوسف بجانبه شيئا يستحق الذكر .

وقد فعلت الفتيات فى مصر ما هو أبشع من هذا عندما مات أحد المطربين العاطفيين منذ نحو ربع قرن ، ولم يكن يتمتع بشيء من جمال يوسف الذى ضُرِبت به الأمثال ، ومع ذلك انتحر بعضهن من شدة غرامهن به! إن الحياة مملوءة بالغرائب ، وإن النفس البشرية لتفاجئنا كل يوم بما لا يخطر على البال ، فلماذا الاعتراض على القرآن الكريم فى تجريح النسوة المشنّعات على امرأة العزيز أيديهن بالسكاكين انبهارا بجمال يوسف» ؟

ويقول الببغاء الأحمق أيضا : «جاء فى سورة «القصص» / ٨ ، ٣٨ : «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» ، «وقال فرعون : يا أيها الملأ ، ما علمتُ لكم من إلهٍ غيرى ، فأَوْقِدْ لى يا هامان على الطين فاجعل لى صَرْحًا لعلى أطَّلِع إلى إله موسى ، وإنى لأظنُّه من الكاذبين» ، وجاء فى سورة «غافر»/ ٣٦ : «قال فرعون : ياهامان ، ابن لى صرحًا لعلى أبلُغ الأسباب» . يقول القرآن إن هامان كان وزير فرعون ، بينما يثبت التاريخ أن هامان كان وزيرا لأحْشَوِيرش وأن بين فرعون وهامان زهاء ألف سنة . ثم إن فرعون كان ملك مصر ، وكان هامان وزيرا فى بابل ، وما أبعد الزمان والمكان بين فرعون وهامان !

فكيف يكون هذا وزيرا لذاك ؟ ويقول سِفْر «أستير» فى التوراة إن هامان كان وزيرا وخليلا لأَحْشَوِيرش ملك الفُرْس الذى يدعوه اليونان زركيس » (ص ٢٩) .

وقبل أن نبدأ فى تفنيد هذا السخف أُوجِّه نظر القراء الكرام إلى جهل العبد الفاضى حتى فيما لا يمكن الخطأُ فيه إلا مِنْ كائنٍ فقد عقله تمام الفقدان : فأولاً لم يقل القرآن فى أى موضع منه إن هامان كان وزيرا لفرعون . وها هى ذى كل النصوص الذى ذُكِر فيها هامان فى الكتاب المجيد قد أوردها صويحبنا ، فهل ترى فيها ، أيها القارئ العزيز ، أنه كان وزيرا لفرعون ؟ لقد ذُكِر اسمه مع فرعون ، وأمره فرعون أن يبنى له صرحا ، لكن القرآن لم يقل إنه كان وزيرا لفرعون. قد يكون فعلا وزيره ، وقد يكون كاهنه الأكبر ، وقد يكون مستشاره، وقد يكون كبير مهندسيه ، وقد... ، وقد... وثانيا هذه أول مرة نسمع أن سِفْر «أستير» جزء من التوراة. إن التوراة هى الكتاب الذى أُنزِل على موسى عليه السلام ، أما سفر «أستير» فهو من كُتُب العهد العتيق التى لم ينزل أى شىء منها على موسى بل أُلِّفَتْ بعده تأليفا . وهذا الأحمق لا يفقه هذه الأوّليّات ، فكيف تواتيه نفسه على الدخول فى تلك المآزق إلا أن يكون قد فقد عقله ؟ وثالثا فإن كاتب سفر «أستير» فى العهد العتيق يقول إن أحشوروش كان ملكا على

إمبراطورية تمتدّ من الهند إلى كوش، وتتألف من مائة وسبعة وعشرين إقليما، وعاصمتها شوش [1]، لكن صويحبنا الجاهل يقول إن هامان كان وزيرا فى بابل !

والآن يبدأ التفنيد . وأول ما نذكر كافٍ وحده لنسف هذا الهراء، ألا وهو أن سِفْر «أستير» مجرد «قصة خيالية» كما يقول مفسّرو الكتاب المقدس أنفسهم [2]. وقد أشرتُ منذ عدة سنوات فى كتابى «مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى» إلى ما لاحظتُه على هذا السفر من ركاكة الأسلوب والطابع «الحواديتى» والتوابل الجنسية الحِرّيفة والتعمُّل الزائد والمصادفات المتكررة والمجافاة لمنطق العقل والتاريخ [3]. وها هم أولاء المعلّقون على الترجمة الكاثوليكية ، التى لم تكن بين يدىّ فى ذلك الوقت ، يقولون الشىء ذاته تقريبا ، فـ«تاريخية التفاصيل وجوهر السفر أيضا تعترضهما صعوبات جمة على الرغم مما جاء من ملاحظات سديدة عن الأخلاق الفارسية وتوبوغرافية صحيحة عن مدينة شوش . من الممكن أن يكون اليهود قد تعرضوا لتعنيفات من هذا النوع فى أثناء الحكم الفارسى ،.وقد حاك

(١) انظر الفصل الأول من سفر «أستير» / ١ ـ ٢ .

(٢) انظر مقدمة سِفْر «أستير» فى الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس /٨٧٧ .

(٣) يُرْجَع فى ذلك إلى الفصل المسمّى «هامان» من الكتاب المذكور / ٥٥ ـ ٨٧ .

المؤلف حول ذكرها قصة خيالية»[1].

وحتى يكون القارئ على بيّنة من حقيقة هذا السِّفْر واستحالة أن يكون وحيا إلهيا يمكن الاستناد إليه في إثبات تلك الحادثة التاريخية التي يدور عليها والتي لا يوجد دليل على وقوعها، نذكر له أنه يَحْكِي قصة فتاة يهودية استطاعت ، بما لها من أنوثة طاغية ، أن تقود الملك الفارسي من أنفه وتجعله يغيرّ سياسة بلده مائة وثمانين درجة ليحتل اليهود فيها مكانة سامقة بعدما كانوا يُسامون الخسف والهوان . وفي القصة حديث عن غضب الملك على زوجته لسبب لا يدخل العقل ، إذ كان قد طلب منها أن تتخذ أبهى زينتها وتظهر معه أمام الملوك والشعوب ليشاهدوا جمالها وفتنتها، وهو ما لا تقبله نخوة أهل الشرق، وبخاصة من الملوك . وقد رفضت الملكة هذا الطلب الغريب ، فكانت النتيجة أن طلّقها ، فتأمَّلْ أيها القارئ وتعَجَّبْ! ثم جُمِعَتْ للملك بعد هذا كل العذارى الفاتنات من أرجاء المملكة وانتُخِبَتْ منهن أجمل سَبْعٍ فيهن ، وكانت كل واحدة من هؤلاء السَّبْع تُهَيَّأ بالتحفيف والأدهان والعطور سنةً كاملة كي يقضي الملك معها ليلة قبل أن يقرر أيّتهن أصلح أن تكون زوجته ... إلى آخر هذا العهر

(١) الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس / ٨٧٧ .

والديانة المعروفين عن القوم . ورغم ذلك يريد رقعاء المبشرين منّا أن نصدق أنها حادثة تاريخية سجّلها الوحى الإلهى ويبغون أن يحاكموا القرآن إليها .

وفى هذه القصة العُهْرِيّة أن الذى كان يتولى كِبْرَ اضطهاد اليهود هو هامان وزير الملك الفارسى أحشورروش . وهنا مربط الفرس ، إذ يتساءل الحمقى : كيف انتقل هامان من قصر الملك الفارسى إلى قصر فرعون فى مصر متقدما هكذا فى التاريخ مئات السنين ؟ فانظروا بالله إلى هذه الوقاحة التى تريد أن تحاكم الحق إلى الباطل ! ترى أين الدليل على أن هامان كان وزيرا أصلا لأحشورروش ؟ لقد ذكر القرآن أن هامان كان يشترك مع فرعون فى اضطهاد بنى إسرائيل فى مصر ، وأغلب الظن أن كاتب السِّفْر قد خلط بين وقائع اضطهاد اليهود فى مصر ووقائع مشابهة فى فارس القديمة فذكر هامان مع أحشبوروش . لا تنس ، أيها القارئ الكريم ، ما قاله علماء القوم أنفسهم من أن سفر «أستير» هو مجرد قصة «خيالية» لا يُطْمَأَنّ إلى صحتها!

ثم إن فى الكتاب المقدس وغيره من كتب هؤلاء الناس أخطاءً قاتلة فى الأسماء والتواريخ بحيث تُضْحِى محاولة اتخاذه معيارا فى هذه القضية هى الهزل بعينه . لقد ذكرنا قبلا أن لِحَمِى موسى عليه السلام فى الكتاب المقدس ثلاثة أسماء ، كما أشرنا إلى ما جاء فيه

من أن المسيح عندما يولد سيكون اسمه «عمانوئيل» ، وهو ما لم يحدث ، إذ لم تسمه أمه أو غيرها من أهل الكتاب أو من أهل القرآن أو من أية طائفة أخرى بهذا الاسم . وفى العهد العتيق أيضا أن هارون أكبر من موسى بثلاثة أعوام[1]، على حين أنه قد أشار بكل وضوح قبل ذلك بصفحات أن موسى هو أول من وُلِد لأبويه [2]. ترى أى الروايتين نصدّق؟ وفيه أيضًا أن إسماعيل وُلِد لإبراهيم قبل إسحاق بأعوام، ومع هذا نفاجأ بعد قليل بأن إسحاق هو وحيد إبراهيم عليه السلام رغم أن إسماعيل كان حيًّا آنذاك وبعد ذاك بعشرات الأعوام[3]. ومرة أخرى نتساءل. أىّ الكلامين نصدّق؟ وهل يمكن أن يكون هذا التناقض الفجّ وحيا سماويا؟ [4]

(١) خروج / ٧ / ٧.

(٢) خروج / ٢ / ١ وما بعدها .

(٣) تكوين /١/١٦ وما بعدها ، و ١٥/١٧ ومابعدها ، و ٢/٢٢ .

(٤) وفى سِفْر «أخبار الأيام الثانى» ، طبقاً للترجمة البروتستانتية، أن يهورام كان عمره حين ارتقى سدّة الملك اثنين وثلاثين عاما ، وظل يحكم ثمانية أعوام ثم مات ، وهو ما يعنى أنه مات عن أربعين عاما . ثم يباغتنا كاتب السفر عقب ذلك بأن ابنه أخزيا ، الذى تولى الملك بعده على الفور ، كان عمره حينئذ اثنين وأربعين عاما . وليس لهذا من معنى إلا أن الولد كان أكبر من أبيه بعامين. وذلك لايجوز إلا فى عقل معتوه أو سكران (أخبارالأيام الثانى / ٢٠/٢١ ، و٢٢/ ١ـ٢ . أما فى الترجمة الكاثوليكية فقد عبثوا بالنص الأصلى بحيث أصبح عمر الابن عند توليه الحكم لمانية عشر عاما فقط !). وفى =

وحتى لو كان هامان فعلا وزيرا لأحشوروش الملك الفارسى ، فهل ثمة ما يمنع أن يكون هناك شخص آخر اسمه «هامان» فى مصر قبل ذلك؟ أم ترى هناك قانون حتمى يفرض أن يختصّ كل اسم بشخص واحد أو مكان واحد لا يعدوه ؟ إن هناك أكثر من مدينة فى العالم اسمها « Cairo »، وأكثر من مدينة اسمها «الإسكندرية» ، وهناك مكانان على الأقل كلّ منهما يسمى «باريس» : عاصمة فرنسا ، وقرية مجهولة فى صحراء مصر الغربية لولا أن د. أحمد أمين قد ذكرها فى كتابه «حياتى» لما علم بها أحد. وهناك الزعيم الروسى «لينين» والكتاب المسرحى المصرى «لينين الرملى» ، وهناك «فرعون» مصر المذكور فى القرآن و «فرعون» آخر جاء بعده بآلاف السنين هو جدّ «رشاد فرعون» أحد رجال الحاشية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود ، وهناك «رمسيس» أحد ملوك مصر القديمة و «رمسيس» رسام الكاريكاتير المعروف فى مصر ، وهناك «حيرم» ملك صور و«حيرم

= سلسلة نسب المسيح عليه السلام اضطراب وخبْط شنيع بين رواية الإنجيل المنسوب إلى متى والإنجيل المنسوب إلى لوقا على ما هو معروف عند قارئ العهد الجديد (متى ١/١ ـ ١٧ ، ولوقا ٢/٤١ ـ ٤٨) . ولا أريد أن أمضى مع هذه المضحكات ، وإلا فسوف يطول الكلام ! وهذا هو الكتاب الذى يحاجّون قرآننا به ، فيا للوقاحة وجمود الوجه !

الغمراوى» كاتب الأغانى المصرى فى عصرنا ... إلخ ... إلخ .

وفى الكتاب المقدس نفسه تتكرر ظاهرة اشتراك شخصين أو أكثر فى نفس الاسم مع ما يفصل بينهما من الأزمان الطويلة ، مثل «يهوديت» المذكورة فى سفر «التكوين» و «يهوديت» صاحبة السفر المشهور فى ذلك الكتاب ، و «أليعازر» بن هارون «وأليعازر» المذكور فى سفر «المكابيين الثانى» ، و «إسماعيل» بن إبراهيم عليهما السلام و «إسماعيل» بن آصيل فى سفر «أخبار الأيام الأول» ، و«يوسف» النبى و «يوسف» النجار ، و«المسيح» شاول و «المسيح» عيسى بن مريم ... إلخ ... إلخ ، فلماذا الإصرار إذن على أن «هامان» لايمكن أن يكون إلا شخصًا واحدا فحسب هو وزير أحشورش ، مع أن السِّفْر الذى ورد فيه هذا الاسم لايمكن أن يكون إلا من بُنَيَّات الخيال؟

وفى التلمود نصٌ يصف هامان وقارون بأنهما أغنى رجلين فى الدنيا(١) ، وهذا الربط بين ذينك الشخصين له دلالته التى لا تَخْفَى ولايُعْقَل أن يكون هامان هنا هو الوزير الفارسى (إن كان لذلك الوزير وجود حقيقى) ، إذ لا علاقة بينه وبين قارون تسوّغ ذكرهما معا فى هذا السياق ، وهو يذكّرنا بالربط بينهما فى سورة «القصص» . ومما

---

(1) E.J. Brill's First Encyclopaedia of Islam, Vol. III, P. 245.

يؤكد صحة ما جاء القرآن عن هامان أن هذا الاسم موجود فى البرديّات المصرية[1] بما يدل على أنه اسم مصرى ويُخْرِس الطائشين الجهّال الذين يفكرون بألسنتهم دون عقولهم !

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من الممكن جدا أن تكون قصة أستير فى الأصل أسطورة بابلية أخذها اليهود وحرّفوها لتوائم أغراضهم: فهامان اسم أحد الآلهة العيلاميين ، ومردكاى اسم إله كلدانى ، أما اسم أستير فليس ببعيد أن يكون تحويرا للإلهة عشتار ، التى يُنْطَق اسمها أيضا «أستير» و «أشتار» و «عشتروت» [2].

لهذا كله نستغرب أن يُقْدِم ذلك الأحمق على التهكم بالقرآن الكريم وليس فى يده من دليل إلا هذا الهراء الذى سطّره مؤلف سفر «أستير» ، زاعما أنه تاريخ وثيق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . على أن هناك برهانا آخر فى غاية الأهمية يؤكد هذا الذى قلناه فى المقارنة بين ما جاء فى القرآن الكريم والعهد العتيق عن هامان، هو أنه ما من مرة قارناً فيها بين الكتابين إلا واتضح بجلاء تام أن الحق فى صف القرآن . ولنأخذ مثلا الملاحظات التالية التى سأحصرها فى

---

(١) انظر د. عبد الجليل شلبى / ردّ مفتريات على الإسلام / دار القلم / الكويت/ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م / ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٢) خروج / ٢ / ١ ـ ١٠ .

قصة موسى وهارون لصلتها بهامان : فالعهد العتيق يقول إن أم موسى قد وضعت وليدها فى التابوت (أو «السَّفَط» كما يسمونه) وظلت تحمله إلى أن وصلت قبالة قصر فرعون فوضعته بين الحلّفاء حيث عثرت عليه ابنة فرعون فأخذته . أى أن التابوت لم يوضع فى الماء رغم أن كاتب سفر «الخروج» يقول إن أم موسى قد طلت السَّفَط بالزفت والحُمَر بما يدل على أنها قد أعدّته لتضعه فى النهر ورغم أن ابنة فرعون تقول بعد ذلك بأسطر قليلة إنها انتشلته من الماء [1] ، أما القرآن الكريم فقد ذكر منذ البداية أن التابوت قد وُضِع فى الماء قولا واحدا .

كذلك فالعهد العتيق ينسب إلى موسى عليه السلام قتْل المصرى عن عمد وقسوة ، على حين يؤكد القرآن أنه كان قتلا خطأ لم يقصده موسى ، بل كانت نيته ردع الظالم عن بَغْيه على الضعيف ، وهذا هو الأليق بأخلاق من اصطفاه الله وربّاه على عينه كى يجعل منه رسولا ، أما ما قاله ملفّق سِفْر «الخروج» فهو أشبه ما يكون بطبائع عتاة المجرمين أصحاب القلوب الجاسية التى لا تعرف الرحمة ولا الندم [2] .

---

(١) خروج / ٢ / ١ ـ ١٠ .
(٢) خروج ٢ / ١١ ـ ١٢ .

وبالنسبة لمعجزة اليد فإن العهد العتيق يؤكد أن يد موسى ، عند وَضْعه إياها فى عُبِّه ثم إخراجها ، كانت تستحيل «برصاء كالثلج»[1] ، أما القرآن فيقول إنها كانت تصير «بيضاء من غير سوء» . وواضح أن القرآن الكريم ، بهذا التذييل الأخير ، يريد أن يرد على تهمة البَرَص ، الذى لا يصلح بحال من الأحوال أن يُتَّخَذ معجزة لأن المعجزة إنما جُعِلَتْ لجذب الناس إلى صاحبها لا لتنفيرهم منه وصرفهم عنه وإشعارهم أنه مغضوب عليه من الله .

كذلك لا يمكن أن يكون ردّ موسى على ربه ، عندما اصطفاه وأَمَرَه بالذهاب إلى فرعون ، بهذه الخشونة والجلافة التى وردت فى العهد العتيق ، إذ يجيب ربه قائلا حسبما جاء فى الترجمة البروتستانتية: «اسمع أيها السيد . لستُ أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمْتَ عبدك ، بل أنا ثقيل الفهم واللسان» ، و «استمع أيها السيد ... أَرْسِلْ بيد من ترسل» ، حتى لقد «حَمِيَ غضب الرب على موسى» كما يقول المؤلف الكذاب[2] . أما القرآن فيصّوره عليه السلام عبدا خاشعا مُخْبِتاً لربه شاعرا بالمنّة الإلهية

---

(١) خروج ١/٣/ .

(٢) خروج ٤/١٠ـ ١٤. أما فى الترجمة الكاثوليكية فقد عملوا على التلطيف من هذه الجلافة .

التى اقتضت اختياره رسولا إلى بنى إسرائيل ، وهذا هو الذى يتلاءم مع أخلاق النبيين .

وعلى خلاف القرآن الكريم ، الذى يجعل من هارون نبيا مع موسى ووزيرا وعضُدا له ورِدْءاً يصدّقه ، نرى مؤلف سفر «الخروج» يجعل منه «نبيا لموسى» لا «نبيا معه» ، ويجعل من موسى «إلها لفرعون» [١] ، ولا أظن أن هناك من يخالف فى أن ما ذكره العهد العتيق هو السخف بل الكفر ، والعياذ بالله !

ويزعم سفر «الخروج» أن الله كان يكلم موسى «وجها لوجه كما يكلم المرء صاحبه» [٢] ، وهو ما يتعارض مع ما جاء فى القرآن الكريم من أنه عليه السلام حين طلب من ربه أن يمكّنه من النظر إليه ردّ سبحانه قائلا : «لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى . فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صَعِقا» [٣] . وهذا هو الذى يقبله المنطق ، إذ كيف تستطيع حواسّنا الكليلة المحدودة أن ترى الله الرهيب الذى لاتحدّه حدود ؟

---

(١) خروج / ٧ / ١ .
(٢) خروج / ٣٣ / ١١ .
(٣) الأعراف / ١٤٣ .

ومن طوامّ العهد العتيق أيضا اتهام كاتب سفر «الخروج» لهارون عليه السلام بأنه هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل وبَنَى كذلك لعبادته مذبحا حيث أخذ بنو إسرائيل ، أثناء غياب موسى للقاء ربه فوق الجبل ، يدورون حوله عراة كما ولدتهم أمهاتهم وهم يرقصون (١).
وهى شنْشنةٌ يهودية أصيلة فى الافتراء على رسل الله الكرام وإلصاق أشنع التُّهَم بهم تلذذا بتشويه كل صورة إنسانية نبيلة . وعلى العكس من ذلك القرآنُ الكريمُ ، الذى يؤكد أن صانع العجل هو السامرى ، أما هارون فقد حاول الوقوف فى وجه هذه الفتنة التى لقيتْ من بنى قومه التحمس والتهافت ، إلا أنهم ظلوا فى غيِّهم سادرين . وفوق ذلك فرواية سفر «الخروج» تتناقض مع نفسها تناقضا أبلق ، إذ تقول إن موسى قد أمر بنى لاوى (وهو واحد منهم) أن يقتلوا جميع ذويهم وأصدقائهم وأهل محلتهم الذين اقترفوا خطيئة عبادة العجل ، وأن محصِّلة القتل كانت ثلاثة آلاف نفس (٢)، إذ يثور هنا (كما يقول أبو الأعلى المودودى) سؤال هام هو : لماذا لم يُقْتَل هارون أيضا إذا كان هو صاحب عبادة العجل ؟ (٣)

---

(١) خروج ٣٢/ ١ ـ ٦ ، ١٧ ـ ٢٠.

(٢) خروج ٣٢/٢٧ ـ ٢٩ .

(1) S.A.A.Maududi, The Meaning of the Qur'ân, Islamic Publication Ltd., Lahore, 1978, Vol. VII, P. 116.

وبغباءٍ منقطع النظير سَبَبُه الجهل والحقد والعناد يزعم العبد الفاضى أن فى كلام القرآن عن نهاية فرعون تناقضا ، إذ يقول سبحانه فى سورة «القصص» /٤٠ : «فأخذناه وجنودَه فنبذناهم فى اليمّ» ، بينما يقول فى سورة «يونس» /٩١-٩٢ مخاطبا فرعون عندما أدركه الغرق فصاح معلنا إيمانه : «آلآن وقد عصيتَ قَبْلُ وكنتَ من المفسدين ؟ * فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلْفَك آية» ، فيظن الجهول أنه عز وجل قد نجّى فرعون من الموت ! متى قال القرآن ذلك؟ وأين ؟ واضح أنه قد فهم من قوله جل جلاله : «فاليوم ننجّيك ببدنك» أن فرعون لم يمت . فهل هذا هو ما تقوله العبارة ؟ إن معنى الكلام فى الآية أن الله وعد بأن يطرح البحرُ جثته على الشاطىء فلا تأكلها الحيتان والأسماك فى قاعه حتى يكون عبرة لمن وراءه ، أما لو كان المقصود هو أن الله سينقذه من الغرق ويعيده إلى مصر كأن شيئا لم يكن فإنه لن يكون عبرة لغيره بل فتنة ، إذ ها هو ذا يعود، بعد كل كفره وضلاله وبغيه وتألهه ، إلى سلطانه وهيلمانه كرة أخرى!

وهذا هو الذى يقوله العهد العتيق أيضا ، بيد أن الجهل والحقد والعناد هو الذى صرف عينَيِ الأبعد عنه فلم يقرأ ما جاء فيه عن لَفْظ

البحر أبدانَ فرعون وجنوده بعد غرقهم ، إذ قال مؤلف سفر «الحكمة» : «وعَبَرَتْ بهم (أى عبرتْ رحمةُ الله بنى إسرائيل») البحر الأحمر وأجازتهم المياه الغزيرة . أما أعداؤهم فأغرقتْهم ثم قذفتْهم من عمق الغِمار على الشاطئ»[1] . ومن قبله قال مؤلف سفر «الخروج» : «فغرّق الربُّ المصريين فى وسط البحر ، ورجعت المياه فغطّتْ مراكب وفرسانَ جميع جيش فرعون الداخلين وراءهم فى البحر ، ولم يبق منهم أحد ، وسار بنو إسرائيل على اليَبَس فى وسط البحر ، والماء لهم سورٌ عن يمينهم وعن شمالهم . وخلّص الربُّ فى ذلك اليوم إسرائيل من أيدى المصريين ، ورأى إسرائيلُ المصريين أمواتا على شاطئ البحر»[2] . ترى أفَهِم الأبعد أم على قلوب أقفالها؟

ومع العبد الفاضى نمضى فنتناول اعتراضه حول قارون ، الذى ذكر القرآن أن الله أرسل إليه هو وفرعون وهامان نبيه موسى عليه السلام فكذّبوا واستكبروا وأمروا بتقتيل الأطفال الذكور من بنى إسرائيل ، حيث جاء فى سورة «العنكبوت» / ٣٩ : «وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ، ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا فى الأرض ، وما

---

(١) حكمة / ١٠/١٨ ـ ١٩ .

(٢) خروج / ١٤/٢٧ ـ ٢٩ .

كانوا سابقين» ، كما جاء فى سورة «غافر» ٢٣/ـ ٢٥ : «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين * إلى فرعونَ وهامانَ وقارون فقالوا : ساحرٌ كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستَحْيُوا نساءهم . وما كيد الكافرين إلا فى ضلال» . أما اعتراض الأُحَيْمق فهذا نصُّه : «يتبادر إلى الذهن من هذه الآيات أن قارون وهامان مصريان من قوم فرعون وأنهما مع فرعون قاوموا موسى فى مصر . ولكن هذا خطأ لأن قارون إسرائيلى لا مصرى ، ومن قوم موسى لا من قوم فرعون كما جاء فى سورة «القصص» ٧٦/ : إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم» (ص ٢٩) .

هذا ما قاله الغبى النزِق ، وأنا أرجو القارئ أن يرجع إلى الآيتين الأُولَيَيْن ويتثّر فيهما النظر ثم يجيب على السؤال التالى : هل ذكر القرآن فيهما أو أوحى مجرد إيحاء أن قارون مصرى حتى يقال إنه قد تناقض مع نفسه حين ذكر فى آية «القصص» أنه من قوم موسى ؟ إن كثيرا من الناس ينشقّون على أبناء طائفتهم وينضمون إلى أعدائهم ويكونون فى خدمتهم ، وبخاصة حين تكون مصالحهم مع هؤلاء الأعداء[1] . وقد كان قارون فاحش الثراء ، وأغلب الظن أن هذا الثراء

(١) مثلما فعل خوَنَة العراق منذ شهور !

سببه انحيازه إلى فرعون وملئه وتفانيه فى خدمتهم وتعاونه معهم . فما المشكلة فى ذلك ؟ المشكلة فى الواقع هى فى عقل هذا الأُحَيْمِق لا فى النصوص القرآنية البريئة التى يقوّلها الغبىّ ما ليس فيها .

* * *

ومما له صلة بموضوعنا واعترض به الطائش على الوحى الإلهى قوله إن القرآن قد ذكر أن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل فى التّيه هو السامرى ، على حين أن هارون هو الذى عمل هذا العجل بناءً على طلب قومه ، أما السامرى فكيف يمكن أن يصنعه قبل أن يكون للسامريين وجود ؟ (ص ٣٠). يقصد أن «السامرى» نسبةٌ إلى السامرة، التى لم تُبْنَ إلا بعد ذلك بزمن طويل .

لكن من قال إن «السامرى» لا يمكن أن يكون إلا من أهل السامرة ؟ هل هناك أولاً ما يقطع بأن «الياء» فى هذا الاسم هى للنّسب ؟ ألا يمكن أن تكون فى لغتها كالياء عندنا فى «كرسىّ» و«زِنْبِىّ» و «بَرْدِىّ» مثلا ؟ ثم إن هذا الاسم قد يكون تحريفا لكلمة «شومر» العبرية بمعنى «حارس أو خفير أو سمير» [1]. أما إذا كانت

(1) Abdullah Yusuf Ali, The Holy Qur'ân, Dar Al-Arabria, Beirut; P. 807, N. 2650.

الياء للنسب فقد تكون النسبة إلى « سامر » صاحب الجبل الذى أُقيمت عليه مدينة « السامرة » فيما بعد(١) ، أو إلى «شيمر» (بالإمالة) ، وهو اسمٌ مصرى بمعنى «غريب» لا يزال حتى الآن منتشرا فى مصر بعد تعريبه ، أو إلى أى مكان آخر فى أرض الكنانة أو غيرها، إذ قد تتعدد الأمكنة والأشخاص ، والاسم واحد، وذلك مثل جبل الكرمل، الذى كان اسما لجبلين مختلفين على حسب ما يقوله شراح العهد العتيق أنفسهم: أحدهما على البحر المتوسط، والآخر فى أرض يهوذا(٢) . أم إنه حلال لهم وحرام علينا؟ ويرى عبد الله يوسف على أن من المحتمل أن تكون طائفة «السامريين» هى المنسوبة إلى «السامرى» لا العكس(٣) .

---

(١) أخبار الملوك الثالث / ١٦/٢٣ ـ ٢٤.

(٢) انظر حواشى العهد العتيق على الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس /١٣ .
وهناك مثال مفحم آخر هو لقب «الناصرى» ، الذى يمكن لأى دعىّ جهول أن يعترض على تلقيب السيد المسيح به بحجة أن «الناصريين» لم يظهروا إلا فى العصر الحديث بعد أن أصبح جمال عبدالناصر حاكما لمصر وصارت له طريقة تسمّى «الناصرية» وأتباع يُسَمَّوْنَ «الناصريين» . لكن مثل ذلك الدعىّ الجهول قد فاته أن فى فلسطين مدينة قديمة تسمى «الناصرة» يُنْسَب إليها المسيح عليه السلام .

(3) Abdullah Yusuf Ali , The Holy Qur'ân, P. 808, N. 2608

وإن تعجب فعجبٌ أن يأنس هذا الببغاءُ الجرأةَ فى نفسه فيهاجم القرآن فيما لا مجال فيه للطعن ويَعْمَى عن المشكلة التى تثيرها «أرض عوص» الوارد ذكرها فى مطلع سِفْر «أيوب» بوصفها البلد الذى كان يسكنه ذلك الرجل . لقد وقف المفسرون الكتابيون حيارى لايستطيعون تحديد «عوص» هذا، إذ «ورد فى سلسلة المتقدمين لثلاثة يحملون هذا الاسم : أحدهم عوص بن أرام ، والثانى عوص بن ناحور ، والثالث عوص بن ديشان ، فلا يُعْلَم أيهم المراد بنسبة هذه الأرض إليه» ، بل إن موضع هذه الأرض غير معروف على وجه الدقة[1] . كما أن اسم «سمعان القيروانى» المعاصر للسيد المسيح فى فلسطين يثير مشكلة أعقد من هذه كثيرا ، إذ أين سمعان هذا من « القيروان » المنسوب إليها ، وهى من بلاد تونس البعيدة التى تفصلها عن فلسطين آماد شاسعة ، ولم تُبْنَ إلا بعد ذلك بقرون على يد عُقْبة بن نافع سنة ٧٦٢م[2] ؟

وقبل ذلك كله كيف يمكن أن يتّهِم عاقلٌ هارونَ عليه السلام بأنه هو صانع العجل ، وهو نبى كريم أرسله الله للدعوة إلى الوحدانية ؟

(١) انظر حواشى العهد العتيق الملحقة بالترجمة الكاثوليكية /١٥ .

(٢) انظر مادة «القيروان» مثلا فى «الموسوعة الثقافية» / دار المعرفة / ١٩٧٢م، و«موسوعة المورد العربية» لمنير البعلبكى / دار العلم للملايين / ١٩٩٠م .

إن ذلك الاتهام ليس له من معنى سوى أنه سبحانه لم يحسن الاختيار ، إذ انتقى شخصا لتأدية مهمة ما ، فإذا به يرسب فى أول امتحان ، ثم هو مع ذلك يظل متمسكا به بل يأمر بقتل كل من اشترك فى عبادة العجل ويُعْفِى الرأس الأكبر الذى تولّى كِبْر الجريمة فصنع العجل وبنى له المذبح وأشرف على عملية الطواف والرقص العارى حوله فى صخب وعُهْر ! ولكن متى كان للقوم عقول يفكرون بها أو حتى آذان يسمعون بها ؟ [1]

ومُضِيًّا مع تنطعه يفتعل العبد الفاضى مشكلةً من لامشكلة ، إذ يقول: «جاء فى سورة «القصص» /٧٦ ، ٨١ : «إن قارون كان من قوم موسى فبَغَى عليهم ... فخسفْنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين» ، ومعروف أن قارون القرآن هو كروسوس ملك ليديا (٥٦٠ ـ ٥٤٦ ق. م.)، وهو عَلَمٌ على الغِنَى بين العرب وغيرهم. ولا يوجد ما يبرّر خلطه بقُورَح الذى ورد ذكره فى التوراة ، فلا علاقة لقارون بقورح الذى ثار مع

(١) يمكن للقارىء أن يجد معالجة مستفيضة لهذه القضية فى كتابى «سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة» / دار النهضة العربية / ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م / ٤٠ ـ ٤٩ .

داثان وأبيرام على موسى ففتحت الأرض فاها وابتلعتهم (العدد/ ١٦)» (ص ٤٧) .

وكنّساً لهذه الفضلات الفكرية نطرح السؤال التالى : من قال لهذا المتنطع إن القرآن بحديثه عن قارون هنا إنما يقصد كروسوس ملك ليديا؟ هل أطلعه الله على مراده وصرّح له بأنه ، وإن قال فى الآية الكريمة إنه كان من قوم موسى ، فهو لايقصد ذلك فعلا بل هدفه تضليل أتباع محمد ، أما الصواب فهو أنه الملك كروسوس ؟ لقد عبث القوم بكتبهم وألّفوا كلاما سخيفا وعَزَوْه إلى الله ، والآن يحسبون بجهلهم أنهم يستطيعون أن يلعبوا نفس اللعبة القذرة مع القرآن الكريم! لقد قال الله تعالى : «إن قارون كان من قوم موسى» ، ثم ذكر بَغْيَه على قومه وكيف انتهى أمره بأنْ خَسَفَ الله به وبداره الأرض وجعله عبرةً لمن يعتبر . وهذه القصة موجودة فى العهد العتيق ، وإن لم ينسب مؤلفها تمرد قارون إلى كثرة كنوزه بل إلى رغبته فى مشاركة هارون الكهانة . والمعروف أن كتب القوم قد ضاعت بعد موسى بأجيال وكتبها لهم عزرا من الذاكرة ، أما القرآن فكان يسجَّل غَضاً فور نزوله ، ولم يَضِع منه شيء البتة . وقد رأينا فيما مضى من صفحاتٍ أمثلةً كافية لأخطاء العهد العتيق وتناقضاته ، وما من مرة قامت فيها مقارنة بينه وبين القرآن فيما يوجد فيه دليل قاطع إلا وكان الفلج للقرآن ، فلماذا

يأتى الأحمق بعد ذلك كله إذن ويقول ما قال ؟ أهو مجرد عناد والسلام؟ وإذا كان القرآن يقصد كروسوس ملك ليديا ، فما الذى منعه من أن يقول ذلك يا ترى ؟

* * *

ومن اعتراضات جاهلنا أيضًا اعتراضه على ما جاء فى سورة «ص»/ ٥٥ من قول الحق تبارك وتعالى لأيوب عليه السلام : «وخُذْ بيدك ضِغْثًا فاضرب به ولا تَحْنَثْ» ، إذ يعلّق الغبى قائلا : «قال البيضاوى : «الضِّغْث : الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه . فاضرب به ولا تحنث : رُوِىَ أن زوجة أيوب ليّا بنت يعقوب (وقيل : رحمة بنت أفرايم بن يوسف) ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف إن برئ يضربها مائة ضربة ، فحلّل الله يمينه بذاك . وهى رخصة باقية فى الحدود» . ونحن نسأل : كيف يصحّ لأيوب البارّ الصبور على ضياع أولاده وعبيده ومواشيه أن يغضب على زوجته ، وهو المشهود له فى التوراة باللطف والحلم ، وخاصة مع زوجته ، إذ قال لها : تتكلمين كلاما كإحدى الجاهلات ! أألخيرَ نقبل من الله ، والشرَّ لانقبل ؟» (أيوب /٢/ ١٠) ؟ وكيف يصح لأيوب أن يتوعد زوجته بالضرب مائة ضربة لمجرد إبطائها ؟ وكيف يحلف ليضربها مائة سوط فينصحه

الله أن يأخذ حزمة فيها مائة عود يضربها بها ضربة واحدة فلا تقع بمينه ؟ وأين أيوب من يعقوب حتى يتزوج ابنته أو من يوسف حتى يتزوج حفيدته؟ والمعروف أن أيوب سابق ليعقوب ويوسف تاريخيا . وهذه القصة موجودة في خرافات اليهود القدماء» (ص ٥٦) .

ونبدأ بخاتمة ما قال ، ومفهوم الجملة الأخيرة من كلامه أن ما جاء في العهد العتيق عن أيوب هو الحق الذى لا مرية فيه، على عكس خرافات اليهود القدماء عن حَلِفه لَيَضْرِبَنّ ... إلخ . ولكن ماذا قال عنه العهد العتيق ؟ في مطلع الفصل الثانى والأربعين مثلا من «سفر أيوب» نجده يقول إنه كان «قد سمع اللهَ من قبل بأذنه» فلم يقتنع بما قاله له، أما الآن وبعد أن «رأته عيناه» فإنه يرجع عما قاله من تجديفات في حقه سبحانه ويندم ندما شديدا . وإننا لنسأل : أيمكن أن يرى أىٌّ شخص الله سبحانه ؟ يجيب العهد العتيق على هذا السؤال بأن موسى حين طلب من ربه فوق الجبل أن يريه مجده كان ردّه سبحانه وتعالى : «أمّا وجهى فلا تستطيع أن تراه لأنه لايرانى إنسان ويعيش» ، وإن كان ملفّقو ذلك الكتاب قد أضافوا ببلاهة لا تخلو من الفكاهة أن الله قد استمر قائلا : «هو ذا عندى موضع. قف على الصخرة ، ويكون إذا مرّ مجدى أنى أجعلك في نقرة الصخرة وأظللك

يـدى حتى أجتـاز ، ثم أزيل يدى فتنظر قـفـاى ، أمـا وجـهى فلا ترى»[1] . وهى حيلة طريفـة للالتـفـاف حول القـانون الإلهى الذى يستحيل بناءً عليه رؤية الله ، إذ ما علينا عندما نعلم باقتراب مرور الله من أمامنا إلا أن نضع أيدينا على عيوننا أو ننظر إلى الجهـة المقـابلة ، حتى إذا ما تيقّنّا من مروره سارعنا فأبصرنا قفاه ! لكن فات الأبله مؤلف هذه القصة أن يصف قفاه سبحانه ! وعلى أية حال فإن العهد القديم كعادته يناقض نفسه فى هذه القضية ، إذ يقول فى موضع آخر إن موسى «كان يكلمه الرب وجها لوجه كما يكلم المرء صاحبه» [2] . وهذا طبعا هـو الكلام غير الخرافى !

أما ما قاله البيضاوى أو غيره عن نسب زوجة أيوب فهو كلام من الكلام إن أصاب فبها ونعمت ، وإلا فالخطأ خطؤه هو ، ولامدخل للقرآن فى ذلك ، ومن ثم لست أفهم كيف يحمِّل جاهلُنا القرآن الكريم ما قاله البيضاوى رحمة الله عليه . كذلك لم يقل لنا القرآن شيئا عن تفصيلات الضِّغْث الذى أمر الله أيوب أن يأخذه ويضرب به حتى لا يحنث ، وعلى ذلك فلا داعى لإثارة زوبعة حول هذه النقطة دون داع . وحتى لو افترضنا أن المقصود هو ضرب زوجته بهذا

---

(١) خروج ١٨/٣٣ ـ ٢٢ .

(٢) خروج ١١/٣٣ .

الضغث ، فما وجه العيب فى الحلّ الذى قدّمه الله له ؟ لقد حلف الرجل أن يضرب زوجته ، فدلّه الله على طريقة ينفّذ بها قَسَمه دون أن يؤلم شريكة عمره ، فما الخطأ فى هذا ؟ ثم إن هذا الجزء من قصة أيوب غير موجود فى العهد العتيق ، فلِمَ يسارع ذلك الجاهل بتكذيبه ، وبخاصة أنه غير موجود أيضا فى القرآن الكريم ؟ إن هذا كله عراك فى غير معترك !

وكان الجاهل قد أورد كلام أيوب لزوجته طبقا لرواية العهد العتيق بوصفه دليلا على برّ أيوب وصبره أمام بلواه ، وكذلك على لطفه وحلمه مع زوجته، مع أن بقية ذلك الكلام نفسه تنبئ عن حدّة وعنف فى معاملته لها حيث يصف كلامها بأنه ككلام إحدى الجاهلات(١) . ثم إن ما قالته هذه الزوجة لزوجها ليستحق ما هو أقسى من الحَلِف بضربها مائة ضربة ، إذ استغربت صبره وتماسكه أمام مِحَنه وحاولت إغراءه بالتجديف على الله حتى يموت ويستريح . وهذا نص ما قالت : «أإلى الآن أنت معتصم بسلامتك؟ جدِّف على الله ومُتْ»(٢) .

ولقد جدّف أيوب (أيوب العهد القديم لا أيوب النبى الكريم الذى نؤمن به نحن المسلمين) ، وتمرد على ربه ، ولعن اليـوم الذى وُلِد

(١) فى الترجمة الكاثوليكية : « ككلام إحدى السفيهات »
(٢) سفر أيوب / ٢/ ٩ .

فيه، وسَخِر من القضاء الإلهى الذى يصبّ الشقاء على الأبرار ويغمر الفجرة بألوان النعم والسعادة ، وتمنىّ لو كان هناك قاضٍ يحتكم هو والله إليه حتى يتبين لله ظلمه وخطؤه ، وأخذ ينوح نواحا متصلا ، وكلما حاول أحد أصدقائه تهدئته ولفت نظره إلى تجاوزاته مع الله ازداد سخطا وتمردا ، وذلك على مدى عشرات الصفحات ، مع بعض الفَيْئات القليلة إلى الرضا أثناء ذلك . أفَمَنْ يتمرد ويجدّف على ربه على هذا النحو ، أيُسْتَبْعَدُ أن يحلف لَيَضْرِبَنّ امرأته لإبطائها عليه ؟ لا ننس أنه لا العهد العتيق ولا القرآن الكريم قد تعرض لهذه التفصيلة ، ولكننى أردت أن أبين للقارئ سخف المنطق الذى سوّل لجاهلنا المسارعة إلى الاعتراض على البيضاوى .

وأخيرا وليس آخرا فإن الجاهل يحاجّ البيضاوى بأن «أيوب سابق ليعقوب ويوسف تاريخيا» ، كما أن مؤلف سفر «أيوب» يذكر أنه كان يسكن فى أرض عوص ، التى تقول حواشى العهد العتيق الملحقة به فى الترجمة الكاثوليكية إنها كانت مجاورة لأرض يهوذا ، أى أنها كانت جزءا من أرض فلسطين . والآن فى ضوء كلام جاهلنا وما جاء فى حواشى العهد العتيق نتساءل : كيف يقول كاتب سفر «أيوب» إذن إن أهل سبإ قد هجموا على بهائم أيوب وقتلوا عبيده واستاقوا الإبل

أمامهم[1] ؟ أين أهل سبإ من فلسطين ، وبالذات فى ذلك الزمن الموغل فى القدم حين كانت وسائل المواصلات بدائية وشديدة البطء ؟ لقد كانت سبأ فى بلاد اليمن ، وبينها وبين فلسطين مسافات صحراوية رهيبة ، فكيف يأتى الرعاة منها ليهجموا على مواشى أيوب فى تلك الأزمان السحيقة التى كانت وسيلة السفر فيه هى الأقدام أو ظهور الجمال على أحسن تقدير ؟ وهذا لو كانت سبأ موجودة فى ذلك الوقت ، بيْدَ أن مملكة سبإ لم تظهر إلى الوجود إلا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، على حين أن يعقوب ، الذى يؤكد الأحمق المائق أنه متأخر فى الزمن عن أيوب، كان يعيش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أى أنه كان باقيا على سبإ ، لكى يكون لها مكان على خريطة الوجود ، عشرة قرون أو تزيد [2] ! فتأمَّلْ واعجَبْ أيها القارئ !

وبالنسبة لمريم عليها السلام يقول المتنطع الذى يصر بغباء عجيب على أن يسعى بقدمه إلى هلاكه إن الآية ١٢ من «التحريم» قد ذكرت أن مريم هى ابنة عمران ، فكيف يصح ذلك ، والإنجيل يقول

---

(١) أيوب /١/ ١٤ ـ ١٥ .

(٢) انظر محمد فريد وجدى / دائرة معارف القرن العشرين / دار الفكر / بيروت/ مادتَىْ «سبأ» و «إبراهيم» ، ومنير البعلبكى / موسوعة المورد العربية / مواد «سبأ» و «إبراهيم» و «يعقوب» و «يوسف» .

إنها بنت هالى (لوقا ٢٣/٣/) ؟ أم كيف يقول القرآن إنها بنت عمران أبى موسى وإنها أخت هارون مع أن بينها وبين عمران وهارون ألفا وستمائة سنة ؟(ص٣٠) .

والواقع أن هذا الكلام لامكان له إلا المرحاض ، وإليك البيان : أولاً «الإنجيل» هو ما نزل على عيسى عليه السلام من وحى سماوى فبلّغه قومَه لا هذه السِّيَر التى كتبها بعض المنتسبين إلى النصرانية بعد عشرات السنين والتى يحوط الشكُّ عند علمائهم أنفسهم شخصيةَ مؤلفيها . فحِجَاج ذلك السفيه لنا إذن بأن الإنجيل قد قال كذا فى هذه المسألة حجاج باطل لأننا لا نؤمن بإلاهية مصدر ما يسمّى بإنجيل مرقس أو لوقا ... إلخ ، لأن هذا الكلام إن كان هو يراه ملزما فإنه لا إلزام لنا فيه .

وهذا كله لو كان فى إنجيل لوقا أو غيره فعلا أن مريم هى بنت هالى، وهو ما لا وجود له ، أما المذكور فى ذلك الإنجيل فهو سلسلة نسب المسيح ، وفيها أنه (على ما يظن أبناء قومه) ابن يوسف بن عالى ... إلى آدم بن الله . ولا ذكر فيها البتة لمريم . فعلام يدل هذا ؟ يدل على واحدة من ثلاث : أن الأبعد جاهل أو كذاب أو أحمق مجنون ! وليختر لنفسه الصفة التى يحب ، فلن نقف حائلين بينه

وبين ما يختار . ومع ذلك فعند النصارى رواية تقول إن مريم هى ابنة يواقيم ، إلا أن هذه الرواية ليست محل ثقتهم[1] . ومرة أخرى نتساءل: علام يدل هذا ؟ ألا يدل على أن أمورهم كلها معجونة بماء الاضطراب والشك ؟ فكيف بالله يجد مثل هذا الأحمق فى نفسه البجاحة على تخطئة القرآن الكريم الذى لايمكن أن يطوله الخطأ؟

وفضلا عن ذلك فإن القرآن لم يقل إن مريم هى بنت عمران أبى موسى أو إنها أخت هارون أخى موسى ، بل كل ما جاء فيه أنها «مريم ابنة عمران» فقط ، وأن قومها حينما جاءتهم حاملةً وليدها ، ولم تكن قد تزوجت ، قالوا لها : «يا أخت هارون ، ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ ، وما كانت أمك بغيًا» [2] ، أى أنها فى القرآن هى أخت هارون ليس إلا ،

---

(1) Elizabeth Gidley Withy Combe, The Oxford Dictionary of English Christian Names, Oxford, 1948, Art. "Joachim", P.78.

(٢) ولهذا السبب أقدم جاك بيرك فى ترجمة القرآن على تغيير اسم «مريم ابنة عمران» إلى «مريم بنت يواقيم» . وقد بيَّنتُ سخف صنيعه هذا فى كتابى «ترجمة جاك بيرك للقرآن الكريم بين المادحين والقادحين» (مكتبة زهراء الشرق / ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م / ٧٤ـ ٧٥) . وبالمناسبة فيوسف النجار ، الذى ذكر لوقا أنه ابن عالى، هو (حسب إنجيل متى) ابن يعقوب ، وسبحان مثبِّت العقل والدين ! (انظر متى / ١/ ١ ـ ١٦ ، ولوقا / ٣/ ٢٣/ ٣٨).

والذى سماها كذلك ليس هو القرن بل قومها . فانظر بالله عليك إلى هذا المدلّس المفضوح الذى يتقوّل على القرآن الأكاذيب !

ثم إن القرآن مصدّق فيما يقول ، وما دام قد قال إن مريم هى ابنة عمران فلا بد أن تكون ابنة عمران فعلا، وبخاصة أنه ليس عند النصارى فى هذا الصدد سوى رواية تفتقر إلى الثقة كما ذكرنا . وقد تكون تسميتها «ابنة عمران» هى تسمية مجازية كما سُمِّىَ يوسف النجار (الذى يقولون إنه كان خطيبها) بـ «يوسف بن داود» على لسان الله ذاته طبقا لإنجيل متى، مع أن بين يوسف هذا وداود عليه السلام نحو ثلاثين جيلا حسبما جاء فى ذلك الإنجيل نفسه [1]، وكما سَمَّى الأعمى (فى إنجيل لوقا) المسيحَ عليه السلام بـ «يسوع بن داود» مرتين[2]. وفى هذا الإنجيل أيضا نسمع غنيا معاصرا للمسيح ينادى إبراهيم من الجحيم بـ «يا أبت» ، ويرد عليه إبراهيم قائلاً: «يا ابنى»[3]. وبالمثل يسمّى المسيحُ ذاتُه المرأةَ المنحنية الظّهْر «ابنة إبراهيم»[4]. أما

---

(١) متى / ١ / ١٦ ـ ٢٠ .

(٢) لوقا / ١٨ / ٣٨ ـ ٣٩ .

(٣) لوقا ١٦ / ١٦ ـ ٢٥ .

(٤) لوقا / ١٣/ ١٦ .

البنوّة لله فما أسهلها وما أرخصها فى الكتاب المقدس : فإسرائيل ابنه البكْر(1)، وداود أيضا ابنه البِكْر(2)، وإفرائيم هو كذلك ابنه البِكْر(3)! وقد رأينا ما جاء فى سلسلة نسب المسيح من أن آدم هو ابن الله ، ولن ننسى بطبيعة الحال ما يقوله النصارى عن عيسى وبنوته هو أيضا لله . وهناك ، فوق هذا كله ، « أبناء الله » التى أُطْلِقَتْ على ما لا أدرى كم من الجماعات المختلِفة ! فيا أيها الأحمق ، ما دامت ذمتكم واسعة بهذا الشكل ، فلماذا تضيقون بتسمية مريم بـ «ابنة عمران» حتى لو كانت هذه تسمية مجازية ؟ وفى هذه الحال سيكون القرآن مجرد حاكٍ لما كانوا ينادونها به حسب تقاليدهم فى نسبة الشخص إلى جدٍّ له بعيد مشهور . بعضاً من حمرة الخجل يا عقل العصفور! أما القول بأن فلانا أو علانا أو ترتانا ابنٌ لله فإن المسلمين لا يُقْدِمون على مثل هذه الشُّنْعة ، إذ هم يعرفون مقام الألوهية وما يجب لها من الإجلال والتوحيد!

* * *

---

(1) خروج / ٤ / ٢٢ ـ ٣٢ .

(2) مزامير / ٨٩ / ٢٦ ـ ٢٧ .

(3) إرميا / ٣١ / ٩.

ويأخذ العبد الفاضى على القرآن ما يسميه «خلّط الأسماء» حيث تقول الآيات ٨٤ ـ ٨٦ من سورة «الأنعام» عن إبراهيم عليه السلام : «ووهبنا له إسحاق ويعقوب كُلاً هَدَيْنا ، ونوحا هَدَيْنا من قبل ، ومن ذريته داودَ وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كلٌ من الصالحين * وإسماعيلَ والْيَسَعَ ويونسَ ولوطا ، وكُلاً فضّلنا على العالمين» . ووجه اعتراض العبقرى الذى لم تلده ولادة فى السُّخْف وضلال العقل أن ترتيب الأنبياء هنا لايجرى على ترتيبهم التاريخى (ص ٣٦ ـ ٣٧) .

وهذا اعتراض لا معنى له أبدا ، فالقرآن لم يقل إن هذا هو ترتيبهم التاريخى ، ولم يستعمل فى العطف بين أسمائهم إلا «الواو» ، وهى حرف لمطلق الجمع ، أى لا تفيد ترتيبا ، بخلاف «ثُمّ» و «الفاء» . فهذان سببان كافيان لإخراس المتنطع ، ومع هذا فإننا نسوق أيضا المعلومة التالية التى لو كان عنده ذرة من حساسية لانشقّت الأرض بعدها وابتلعته كما ابتلعت قارون . يا أيها المتنطع ، قبل أن تقذف بيوت الناس بالحجارة انظر إلى زجاج بيتك وخَفْ عليه أن يفكر الآخرون فى الردّ على حجارتك الطائشة التى لا تفيدك شيئا بحجر واحد يحطمه لك تحطيما ! وبيتك الزجاجى الذى أقصده هو أسفار الأنبياء فى العهد العتيق التى لا تخضع لأى ترتيب تاريخى رغم أن ذلك

الكتاب قائم على ترتيب الأحداث التى وقعت لبنى إسرائيل ترتيبا تاريخيا ، إذ وردت تلك الأسفار فيه على النحو التالى : أَشْعَيا ثم إرميا ثم باروك ثم حزقيال ثم دانيال ثم هوشع ثم يوئيل ثم عاموس ثم عوبديا ثم يونان ثم ميخا ثم نحوم ثم حبقوق ثم صفنيا ثم هجاى ثم زكريا ثم ملاخى، على حين أن الترتيب التاريخى هو عاموس، هوشع ، أشعيا ، ميخا ، صفنيا ، ناحوم ، حبقوق ، إرميا ، حزقيال ، حجاى ، عوبديا ، زكريا، يوئيل، دانيال، وهذا ليس كلامنا نحن بل كلام علمائكم(1) .

ويستمر عقل العصفور فى هجومه الصبيانى الأخرَق على القرآن الكريم فيتهمه بأنه مأخوذ من أقوال الحنفاء وأشعار امرئ القيس وقصص سلمان الفارسى وكُتب جهلة اليهود والنصارى (ص ١٨٥) . ولو كان عنده هو والذين أزّوه على هلاكه مُسْكة من عقل ما فتح هذا الباب الذى إنما يفتح به على نفسه أبواب الجحيم . ترى لو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أخذ كلام الحنفاء وجعله قرآنا ، فلِمَ سكت منهم من ظلوا أحياء إلى ما بعد بعثته كورقة بن نوفل ، الذى سارع إلى الإيمان به وأعلن أنه لو امتدّ به الأجل إلى اليوم الذى يُقْدِم القرشيون فيه على إيذائه وإخراجه من مكة فلسوف يقف إلى جانبه

---

(1) انظر الكلمة التمهيدية التى قدم بها شراح الكتاب المقدس لأسفار الأنبياء فى الترجمة الكاثوليكية / ٣٣٧ .

وينصره نصرا مؤزرا ، وكأمية بن أبى الصلت ، الذى كان عازما على الدخول فى دعوته والانضواء تحت رايته لولا أن وقعت غزوة بدر، وسقط بعض أقاربه قتلى بسيوف المسلمين ؟ ترى لم سكتوا فلم يقولوا: إن محمدا إنما تعلّم منا واستوحى قرآنه من كلامنا ؟ ولِمَ سكت كذلك أولاد من مات منهم قبل البعثة وأقاربُهم كما هو الأمر فى حالة زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، الذى كان ابنه سعيد من أوائل من لبّوا دعوة الرسول لم تبعه ابن عمه وصهره عمر بن الخطاب ؟

ولقد توفرت لأمية كل الدواعي لفضح محمد لو كان الرسول عليه السلام قد استمد قرآنه منه ومن أمثاله ، فقد رثى هَلْكَى قريش فى غزوة بدر بقصيدة حائية بلغت الغاية فى التفجع عليهم والتحريض على الإسلام والمسلمين . وهذه القصيدة موجودة فى ديوانه وفى كتب السيرة والتاريخ والأدب ، ومع ذلك تقرؤها من أولها إلى آخرها فلا تجد فيها كلمة واحدة تتّهم محمدا بشىء . كذلك كان هناك أبو عامر الراهب ، الذى كان الغلّ يلتهم قلبه والذى كان يتصل بالبيزنطيين فى الشام يستعين بهم على حربه صلى الله عليه وسلم وكان له بين سكان المدينة عيون وأنصار ، ومع ذلك كله لم يحدث أن فتح فمه بكلمة تتهمه عليه السلام بالأخذ من الحنفاء حتى ولا لابنه حنظلة ، الذى تمرد عليه وانحاز إلى الرسول عليه الصلاة والسلام

واستُشْهِد فى معركة أحد حيث بلغ تحريض أبيه وتآمره على النبى والمسلمين المدى الأبعد .

ويزعم الأحمق الكذاب أن القرآن فى قوله تعالى فى الآية ١٠٣ من «النحل» : «ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلّمه بشر . لسانُ الذى يُلْحِدون إليه أعجمىٌّ ، وهذا لسانٌ عربىٌّ مبين» قد شهد أن المقصود بالذى أملى القصص الفارسية على محمد هو سلمان الفارسى (ص ١٩١) . لكن الآية ، كما هو جلىّ لكل من لم تَعْمَ عيناه وبصيرته كصاحبنا الغبى الذى طمس الله على فؤاده ومدّ على بصره غشاوة ، ليس فيها أية إشارة إلى سلمان أو أى قَصَصٍ فارسى . هذه واحدة ، أما الثانية فإن الآية مكية ، وسلمان لم يظهر فى الأفق الإسلامى إلا فى المدينة بعد الهجرة بفترة ، فكيف يمكن أن تتكلم الآية الكريمة عن شخص لم يكن له حتى ذلك الحين ولا إلى ما بعد ذلك بأعوامٍ وجودٌ فى حياة النبى عليه السلام ؟ أرأى القارئ كيف فقد أعداء الإسلام العقل والحياء على هذا النحو الشائن المخزى؟ ونأتى إلى الثالثة ، والثالثة ثابتة كما يقولون : فالمعروف أن سلمان هو الذى سعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى رحلة طويلة مرهقة طوّف فيها بعدد من بلدان الشرق الأوسط حتى وصل إلى يثرب حيث بِيعَ ، وهو الشريف الفارسى ، بيْع العبيد ، وانتهى أمره بالدخول فى الإسلام وملازمة النبى

عليه السلام والمثابرة على خدمته وخدمة دعوته بكل سبيل . وكانت قصص الأنبياء والأمم السابقة وآدم وإبليس وغير ذلك قد أصبحت تملأ القرآن، فلم تعد هناك حاجة إلى ما فى جعبة سلمان، أو كما قال أحدهم ذات مرة فى سخافة حقيرة : «إلى الكنز المعرفى الثمين» الذى كان فى حوزة سلمان والذى يدّعى ذلك الأفاك ما ادّعى أفّاكنا الحالى أن الرسول عليه السلام كان يستمد منه .

أما الشعر الذى أَفَكَ هذا الكذاب بأن القرآن قد أخذ منه بعض العبارات فهو الأبيات التالية التى تُنْسَب لامرئ القيس :

دنت الساعة ، وانشقّ القَمَرْ ... عن غزالٍ صادَ قلبى ونَفَرْ

مرّ يومَ العيد بى فى زينةٍ ... فرمانى فتعاطى فعَقَرْ

بسهامٍ من لحاظٍ فاتكٍ ... فرّ عنّى كهشيم المحتظر

وإذا ما غاب عنى ساعةً ... كانت الساعة أدهى وأمرّ

كُتِبَ الحسن على وجنته ... بسحيق المسك سطرا مختصر

عادة الأقمار تسرى فى الدجى ... فرأيت الليل يسرى بالقمر

بالضحي والليل من طرّته ... فرقه ذا النور: كم شىء زهر

قلتُ إذ شقّ العذارُ خدّه : ... دنت الساعة ، وانشقّ القمر

(١٨٥ـ١٨٦) . والعبارات التى زعم الكذاب أن القرآن قد أخذها من هذا الشعر هى العبارات التى تحتها خط . ووالله إنى لأستعجب من كل هذا الغباء الذى سوّل للأحمق أن يقول هذا الذى قاله . تَعْساً لك يا عبد الفاضى وليومٍ ولدتك فيه أمك ! إنما ولدتْك للشقاء ، فيا ويلك ثم يا ويلك ! أهذا شعر يقوله امرؤ القيس ؟ إن الأبعد لايشمّ ، لأنه لو كان يشمّ لأغلق فمه المنتن فلم ينبس ببنت شفة فى هذا الموضوع . إن الركاكة تسربل الأبيات من بدايتها إلى خاتمتها ، ولم يكن الشعر الجاهلى يوماً (فضلا عن أن يكون هذا الشعر لامرئ القيس) ركيكا بهذا الشكل المزرى. ثم إن القصيدة تتغزل فى غلام ، ومتى كان الجاهليون يتغزلون فى الغلمان؟ إن هذه الظاهرة لم تنشأ إلا فى العصر العباسى يا أيها الغبى الأبله !

ثم هل يمكن أن يقول أى شاعر جاهلى : «دنت الساعة ، وانشق القمر» ؟ والجواب : «كلا» بالثُّلُث ، فالجاهليون لم يكونوا يستخدمون كلمة «الساعة» للدلالة على يوم القيامة . بل إن يوم القيامة لم يكن جزءا من عقائدهم ، اللهم إلا نفرا ضئيلا منهم هم الحنفاء ، الذين كانوا مع ذلك لا يؤمنون أكثر من مجرد إيمان عام بأن هناك عالما آخر، أما دنوّ هذا اليوم فلم يكن يجرى لهم فى بال . ثم أين امرؤ القيس رغم ذلك كله من الحنفاء ؟ كذلك ففكرة «انشقاق القمر» هى من

الأفكار التى يستحيل خطورها فى عقل أى شاعر جاهلى سواء كان المراد أن القمر قد انشق فعلا كما تقول بعض الروايات الخاصة بأسباب نزول الآية الأولى من سورة «القمر» أو كان المراد مجرد الإشارة إلى أن القمر سينشق مستقبلا مع قيام الساعة على عادة القرآن فى استعمال الفعل الماضى فى كثير من الأحيان للدلالة على أحداث القيامة والعالم الآخر. ذلك أنه على المعنى الأول يكون «انشقاق القمر» معجزة من المعجزات ، والجاهليون لم يكونوا يؤمنون بالمعجزات ، أما على المعنى الثانى فحتى الطائفة الضئيلة التى كانت تعتقد ، كما قلنا، اعتقادا عاما فى العالم الآخر لم يكن فى ذهنها أن انشقاق القمر هو من مقدمات القيامة ، فما بالنا بامرئ القيس ؟

ولقد نقّبْتُ ذات يوم فى أشعار الجاهلية للبحث عن كلمة «العيد» فلم أجد إلا شاهدين اثنين لاغير ، أما عبارة «يوم العيد» بأكملها فلا وجود لها فى ذلك الشعر . ثم هل يقول الجاهليون فى أشعارهم ما جاء فى البيت الأول مما لا يستطيع الإنسان أن يعقل له معنى من أن القمر قد انشق عن غزال صاد قلب الشاعر ونفر ، أو ما جاء فى البيت الرابع من أن ذلك الغلام قد فرّ عن الشاعر كهشيم المحتظر ؟ أم هل كان من الممكن أن يتصوروا كتابة منقوشة على وجنة إنسان ؟ إن هذا من مظاهر الترف الحضارى الذى لم يكن ليخطر لهم على بال ! أم هل

كانت قصائدهم تعرف ألفاظا وعبارت مثل «الطُرّة» و «عادة الأقمار» و«حِرتُ فى أوصافه» أو الركاكات التى تجعل الشاعر يكرر كلمة «أحور» فى البيت الثانى مرتين، أو جملة «دنت الساعة وانشق القمر» فى أول القصيدة وآخرها دون أدنى مسوّغ إلا الهذر والإسهال اللفظى؟ أم هل جمع أى شاعر جاهلى كلمة «قمر» كما فى البيت السابع من القصيدة التافهة التى بين أيدينا؟ أم هل يمكن أن يخضع أى شاعر جاهلى لضرورة القافية بحيث يقول : «سطرا مختصر» بدل «سطرا مختصرا» ، أو أن يخطىء فيقول : «لحاظ فاتكِ» بدلا من «لحاظ فاتكة» ؟

وأخيراً لقد كنت أستطيع أن أريح نفسى منذ البداية فأقول إن هذه القصيدة لا وجود لها فى ديوان امرئ القيس ولا فى ديوان أى شاعر جاهلى، لكنى أردت أن أبين أن أى إنسان عنده مزيّة الشمّ يستطيع على مسافة أميالٍ أن يعرف أنها ليست لامرئ القيس ولا لأى شاعر جاهلى أو إسلامى أو أموى أو حتى عباسى رغم أن التغزل بالغلمان قد بدأ فى أيام العباسيين كما سلف القول ، إذ إن طابع عصور الانحطاط فى تاريخ الأدب العربى واضح فيها أشد الوضوح. ونفس الشىء نقوله فى البيتين الآخرين اللذين نسبهما صُوَيحِبنا الجاهل أيضا لامرئ القيس (ص ١٨٦) ، وهما :

أقبلَ والعشّاق من خلفه كأنهم من حَدَبٍ ينْسِلون

وجاء يومَ العيد في زينةٍ لمثل هذا فلْيعمل العاملون

وتبقَى كُتُب جَهَلة اليهود والنصارى : فأما النصارى فلو كان رسول الله قد تعلم شيئا منهم لانبرى له أحَدٌ من كان منهم فى مكة أيام اضطهاد قومه له صلى الله عليه وسلم ، مما من شأنه أن يغرى بتقوّل الأقاويل عليه ، قائلا: «أنا الذى أخذتَ منى يا محمد كلامى وزعمتَ أنه قرآن ينزل عليك من السماء!» . ولقد ظهر النصارى مرة أخرى فى حياته عليه الصلاة والسلام بالمدينة حين زاره وفد نصارى نجران ، وفيهم سادتهم وعلماؤهم ، فدعاهم عليه السلام إلى المباهلة، وهى قمة التحدى ، فلماذا لم يقولوها ؟ ولماذا لم يقلها بحيرا ، الذى يطنطن المستشرقون أنه هو الذى علّمه عليه السلام ؟ أما اليهود فإنهم لم يتركوا أى شىء يَرَوْنَ أنه يُفْسِد عليه أمره إلا وفعلوه ، حتى لقد ذهبوا إلى قريش وزعموا أن أصنامهم ووثنيتهم وانحرافاتهم الأخلاقية خير من توحيد محمد وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق ، كما تآمروا على قتله وطَعْن دينه فى ظهره ووضعوا أيديهم فى أيدى الأحزاب فى غزوة الخندق ... إلخ ، ورغم ذلك نراهم لم ينبسوا بكلمة واحدة عن أخذه المزعوم من كتبهم . ومعروف أن اليهود يتمتعون بوقاحة فائقة ولا يبالون أن يفتروا الكذب على أشرف الشرفاء ، بيد أنهم خرسوا

تماما فى هذه المسألة ، فعلام يدل هذا ؟ وكيف تواتيك نفسك أيها المتنطع الكذوب بعد أربعة عشر قرنا من الزمان على توجيه مثل هذا الاتهام؟ إن الحياء هو خُلُق الكرام ، وأنتم قوم لا تستحون ، تماما مثل المومس التى يعرف الناس جميعا عهرها وفضائحها ، ومع ذلك فإنها لا تشعر بذرة من خجل بل تقف فى الشارع وتصيح بملء صوتها العاهر أنها أشرف من كل نساء الدنيا وأنها وأنهن ! أهذا غاية ما عندكم مما تتهمون به سيد الخلق ؟ أكل هذا من أجل أن دينه قد أنكر التثليثَ ووراثةَ الخطيئة وأبوّةَ الله لواحد من عبادة وشُرْبَ الخمر وأكْلَ الخنزير وتَرْكَ الختان ؟ لقد ظلت حربكم هذه العوَان مشنونة عليه وعلى دينه طوال القرون الأربعة عشر الخالية ، ولكنها لم تؤدّ بكم إلى شىء ! وإنكم لتظنون أن الهوان الذى أصاب المسلمين فى هذه الأيام النَّحِسات هو فرصتكم الذهبية للقضاء على دين سيد الخلق، وأنتم فى ذلك واهمون وهم النائم الذى لم يتغطَّ جيدا فبانت سوأته وهو يحلم الأحلام ويظنها حقائق ! إنكم لتناطحون جبلا أشمَّ ، ولقد فقد عقلَه من تسوّل له نفسه أنه يستطيع تدمير الجبال بقَرْنَىْ صرصور!

* * *

وتحت عنوان «الوحى الذى يشكّ فيه مبلّغه» يسوق الشقىُّ اللعينُ قوله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام فى بدايات الوحى : «فإن كنتَ

فى شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب مِنْ قَبْلِك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين» (يونس / ٩٤) دليلا على أنه صلى الله عليه وسلم كان يشكّ فى نبوته ، فكيف يتوقع إذن من سامعيه أن يصدّقوه ؟ ثم يستشهد بقول بولس إلى أهل غلاطية (٨/١) : «إنْ بشّرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشّرناكم فليكن أناثيما (أى واقعا تحت لعنة)» على أن هناك فرقا بين محمد ، الذى يشك فى الوحى الذى ينزل عليه ، وبين بولس الواثق فيما كان يبشّر به حسب كلامه (ص ٨٢ ـ ٨٣) .

ومقطع الحق أنه ليس فى الآية الكريمة ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يشك آنئذ فى الوحى ، فإنّ حرف الشرط «إنْ» يدل على استحالة الفعل أو استبعاد حدوثه على أقل تقدير ، وإنما هو ضرب من تثبيت القلب ، إذ كان قومه يكذّبونه ويفترون عليه الاتهامات ، فبيّن القرآن له أنه على الحق فلا ينبغى أن يبالى بافتراءات المفترين ، وإذا كان قومه يكذبونه ويرفضون دعوته فها هم أولاء الذين يقرأون الكتب من قبله ، فليسألهم إن أحبّ ، ولسوف يجيبونه بأن نبوته معروفة عندهم وأن الناموس الذى ينزل عليه هو نفسه الناموس الذى كان ينزل على إخوانه الأنبياء من قبل . إنه نفس الجواب الذى

سمعه قبلا من ورقة بن نوفل . ومع ذلك فإنه عليه السلام لم يشكّ ولم يسأل ، وقد وردت الروايات بذلك ، إذ كان جوابه عندما نزلت عليه تلك الآية . «أنا لا أشكّ ولا أسأل» . وحتى لو كان عليه السلام قد توقف أمام هذا الحدث العجيب الذى حوّل حياته وحياة البشرية ومسيرتها الحضارية تحويلا ، فماذا فى هذا ؟ إنه يدل على أنه لم يخترع الوحى كما يفترى عليه أعداء الإسلام ، إذ المخترع لا يشك ولا يتوقف ، فضلا عن أن يعلن هذا على الملإ ، وإنما كان يبغى اليقين المطلق ، وهذه قمة الموضوعية . وعلى أية حال فإن حرف الشرط «إنْ» الموجود فى أول الآية الكريمة موجود أيضا فى أول عبارة بولس : «إنْ بشّرناكم ...إلخ» ، فهل يقول المتنطع الجهول إن بولس يعترف بأن من الممكن أن يبشّر أهل غلاطية بغير ما كان يبشرهم فعلا به؟ ولقد خاطب الله رسوله قائلا : «قل : إنْ كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين »[1]، ومستحيل فى الإسلام وفى منطق العقل أن يكون لله ولد . ألا يرى العبد الفاضى أنه كالحمار يحمل أسفارا ؟

وإنى لأستغرب كيف لم يفكر الغبى مثلا فى صيحة عيسى عليه السلام على الصليب حسب مزاعم العهد الجديد : «إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى؟» ، إذ ليس لها من معنى إلا أنه لما جَدَّ الجِدّ نسى كل ما

---

(١) الزخرف / ٨١ .

اتفق عليه مع أبيه (أو بالأحرى : مع إلهه طبقا لكلامه هو) من أنه سيُصْلَب تكفيراً عن خطايا البشرية ، فأخذ يبكى ويصيح عبثا دون جدوى! فذلك هو الذى ينبغى أن يشغل ذلك المتنطعُ به نَفْسَه لا بتقحُّم تفسير القرآن برعونة وجهل ! هذا ، ولا أريد أن أشير إلى اجتراء إبليس على المسيح (وهو الله عندهم) وأخذه إياه إلى قمة الجبل كى يختبر إيمانه ، ولا إلى تعميدِ يحيى عليه السلام له ، أى تعميد العبد للربّ ... إلخ، وهو كثير !

* * *

ويستمر التعيس فى تخبطاته فيقول إن قوله عز شأنه فى الآية ٢٣ من «المائدة» عن يهود المدينة : «وكيف يحكّمونك ، وعندهم التوراة فيها حُكْم الله ؟» ، وقوله جلّ وعلا عن النصارى فى الآية ٤٧ من نفس السورة : «ولْيحكم أهل الإنجيل بما أنزلِ الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» ، دليل على أن التوراة والإنجيل اللذين كانا فى أيدى اليهود والنصارى صحيحان (ص ٨٣) . وهو فهم غبى، وإنما يريد القرآن أن يوضح لليهود نفاقهم وتخبطهم حيث يرفضون نبوة محمد ، وفى ذات الوقت يأتون إليه طالبين منه أن يصدر حكمه على زانيين منهما ، فقال لهم : إن فى كتابكم العقوبة الخاصة بالزنا ، فلماذا تتجاهلونها وتظنون أن رسول الله سوف يحكم

عليهما بحكم آخر أخفّ ؟ ولقد عبث اليهود فعلا بتوراتهم ، إلا أن هناك مواضع وأحكاما فيها لم تمسسها يد العبث ، ومنها رجم الزناة . فهل إذا قال القرآن الكريم إن حكم الزنى الموجود فى العهد العتيق هو حكم صحيح كان معناه أن كل ما فى ذلك الكتاب صحيح؟ أما قوله عز وجل : «ولْيحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» فهو يتحدث عما أنزله الله على عيسى لا ما أضافته أو حرّفته يد الإفساد . ولقد كان مما أنزله الله على عيسى التبشيرُ بنبوة محمد ، وهو مما أمر الله أهل الإنجيل أن يحكموا به فيدخلوا فى دين محمد ويعتنقوا التوحيد بدل التثليث ويَعِفّوا عن لحم الخنزير وما إلى ذلك مما أدخله بولس وأمثاله فى ديانة عيسى ، وهى منه براء ، فهذا هو معنى الآية ، لكن القلوب الغُلْف لا تفهم ! وبالله التوفيق !



الفهرست

رقم الإيداع

٢٠٠٣/١٥٦٤١م

دار الفردوس
للطباعة والكمبيوتر
ت ٦٢٦٩٨٩٢
م ٠١٠٥٤٢٠٨٠١